

محمّد بن محمد

اتجاهات الأدب العربي

في السنين المائة الأخيرة

مستند الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعها بالجامع ت ٩١٩٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ مكة الشامية بالجامعة الأردنية



0145867

محمود تيمور

اتجاهات الأدب العربي

في السنين المائة الأخيرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعها بالجاميزة ت ٩١٩٣٧٧

الأدب العربي

في السنين المائة الأخيرة

معالم البحث

- الأدب العربي في عصور التخلف .
- انتفاضة الشرق وأثرها في الأدب .
- نصيب الأدب من جهود البعثات العلمية .
- مرحلة التحرر القومي ومهمة الأدب فيها .
- تحرير المرأة واشتراكها في الميدان الأدبي .
- ترجمة الأدب القصصي .
- نشأة الرواية التاريخية في الأدب العربي وتطورها .
- الرومانسية في الأدب العربي الحديث .
- أدب المهجر .

- تجديد الشعر العربي .
- الصحافة ونهضة الأدب .
- تطوير النهضة .
- معركة القديم والجديد .
- القصة الفنية وروادها في الأدب العربي .
- أعلام الكتابة القصصية .
- المؤثرات في تقويم القصص الفني .
- محاولة الأدب تعصير اللغة والأسلوب والموضوع .
- التصوير الفني للمشكلات الاجتماعية .
- الأدب بين العامة والفصحي .
- مجمل الطابع الحاضر للأدب العربي .

إذا أردنا أن نحدد على وجه التقريب الفترة التي تعتبر فترة الحضارة والتنشئة لهذا الأدب العربي الحديث ، جاز لنا أن نحددها بالسنين المائة التي مضت فيما بين القرن الماضي ومنتصف القرن الحاضر .

والأدب العربي — كما هو معروف — أدب عريق ، اجتاز من عمر التاريخ مراحل طويلاً ، إذ يتواصل نسبه خلال خمسة عشر قرناً أو يزيد ، وهو إلى ذلك أدب عالمي استمد من مختلف ثقافات البلاد والأمم السالفة خصائص شتى ، وكان له من بعد أثر بعيد في كثير من الآداب العالمية الأخرى ، على تباين اللغات الشرقية والغربية ، في عديد من العصور .

ولسكن هذا الأدب العربي مع ذلك كله ، تساورته أسباب

الضعف والخنول ، طوعا لما أصاب الأمة العربية في عهددها المغولية
والمملوكية من هوامل التخلف والتفكك والجمود ، فانكشف الأدب
أثناء تلك العهود المظلمة في نطاق ضيق ، يدور حول أغراض
تافهة ، فلا يستجيب لما يضطرم في وجدان الحياة من جوهر
إنساني صميم ، ولا يسهم بقدر كاف في توجيه اجتماعي إيجابي ،
يعبر عما في نفوس الناس من آلام وآمال .

٢

وانتفض الشرق انتفاضته الجديدة ، ففتح عينيه على حضارة
أوربية ذات نظم في السياسة ، وأوضاع في الاجتماع ، وحقوق
للإنسان ، ومذاهب في الفكر ، وألوان من الأدب ، كانت كلها
قد نمت وربت وازدهرت ، بفضل كفاح شعبي مرير ، وحراع
عقلي مديد ، وأفانين من التجارب والممارسات ، في غضون مئات
من السنين ، والشرق يومئذ منعزل يغط في نومه العميق ، تحت
منهبط الظروف والملايسات التي أسلمته إلى حكم استبدادي عانى
منه ما عانى من ضروب الاضطهاد .

وقد دعمت هذه الانتفاضة الجديدة في ربوع الشرق عناصر
كثيرة ، في مقدمتها ثلاثة : الأول ظهور المطبعة ، التي يسرت
للتعليم أن ينتشر ، وأتاحت للثقافة أن تشيع . والثاني رجيل البعثات

التي عادت من « أوروبا » تحمل مشاعل العلم والمعرفة في أضواءها الجديدة . والثالث بزوغ الوعي الشعبي الذي ساعد على تكوين الشخصية الوطنية .

وإن انتفاضة الشرق في ذلك العهد ، طى بمنزلة « عصر النهضة » ، أو « عصر البعث » ، في الآداب الأوربية ، ذلك العصر الذي سمي « الرئيسانس » ، على ما بين الانتفاضة الشرقية والنهضة الأوربية من فوارق تستدعيها مقتضيات الأحوال واختلاف العوامل بين الشرق والغرب .

وكما حدث في عصر النهضة ، أو عصر البعث الأدبي في « أوروبا » من قيام تلك النهضة على دعائم من الأدب الإغريقي الذي كان يسمى الأدب الاتباعي أو الأدب الكلاسيكي ، حدث في نهضة الأدب العربي أن قامت هي الأخرى على دعائم من أهمها ابتعاث القديم ، وإحياء التراث ، وتجديد الشعر بمحاكاة الفحول من الشعراء في أزهي العصور السوالمف ، وتقليد الأساليب البليغة والفنون الأدبية القديمة ، مثل « المقامات » ، والتعلق بالأحكام المنطقية التي كانت تسود الفكر العربي إبان ازدهاره في حضارة العرب ، والقوانين البلاغية التي تجمدت على أقلام العلماء والنقاد في مراحل شتى من الزمن .

ونظرة إلى شعر « البارودي » ، وهو أول شاعر من ثمار النهضة ، ترينا أن أكبر ما قام به هو أنه ارتفع بموضوع الشعر عن الأغراض الهزلية التي كان يسبح فيها الشعراء في عصور الركاة والتخلف ، وأنه رد دياجة الشعر وعموده وأغراضه إلى ذلك المستوى الذي كان لعباقرة الشعر العربي في ماضيه البعيد . ويفسر هذه النظرة أن « البارودي » نفسه أراد أن يخدم نهضة الشعر ، فقدم لطلابه « مختارات » من أروع ما قال أولئك الشعراء في العهود الماضية ، فكان التجديد عند « البارودي » هو الرجوع إلى هؤلاء الشعراء ، والاستمداد مما تركوه ، وسبيل هذا عنده أن يستظهر الجيل الجديد نخبة الذخائر من ذلك الأدب العربي الكلاسيكي التليد .

وكما تجلّى ذلك في جانب الشعر ، تجلّى أيضاً في جانب النثر ، فقد كان جهد ما تتناول إليه أقلام الكتاب أن يصطنعوا أساليب البلغاء من المتقدمين أمثال « الجاحظ » و « الهمداني » و « القاضي الفاضل » على تنوعها ، واختلاف خصائص كل منها ، وكانوا يفاخرون بأنهم قد تدانوا من منالها ، واتخذوا منها مثالا يحتذى . بل لقد حاول أولئك الكتاب أن يحيوا فناً أدبياً قديماً هو فن « المقامات » الذي برع فيه « الهمداني » و « الحريري » فيما مضى ،

وهو لون من ألوان القصص العربي . فكتب «اليازجي» ، على ذلك ،
الغرار كتابه «بجمع البحرين» ، وهو إلى اللغة والتعليم أقرب .
وكتب «المويلحي» كتابه «حديث عيسى بن هشام» فكان تطورا
لفن الأدب المقامى ، يفتح منحنى القصص الفنى ، ويعالج من الشؤون .
ما يتصل بالحياة أوثق الاتصال .

وعلى الرغم من أن العقلية العربية قد نضجت في عهد الراهن .
بمئات من العلم الحديث ، والحضارة الجديدة ، وعلى الرغم من أن
الجهد الفكرى والإنتاج الأدبى فى شتى مواطن العروبة يسهم
إسهاما كبيرا فى متابعة الفكر العالمى والأدب الإنسانى ، وفى التأثير
بمختلف التيارات التى تسفر عنها مناهج البحث وطرائق النقد فى
الشرق والغرب على السواء — على الرغم من هذا كله ، فإن هناك
نزعة عميقة الجذور فى كيان الوطن العربى بدلوله الواسع ، وهذه
النزعة لا تبرح تهفو بالمفكرين وقادة الرأى إلى الاستمسك
بالأصول العريقة فى أدب العروبة ، وما أنتجت قرائح العرب على
مد العصور الخالية ، واعتبار هذه الأصول ينبوعا عذبا نقياً للتنشئة
اللغوية وتربية الملكات وتقويم الشخصية فى هذا الجيل وفيما يستقبل
من الأجيال ، وإن هذه الأصول لتحمل فى التعبير عنها على ألسن
الكتاب والنقاد أشرف الكلمات دلالة وأوفرها سناء ، فهى تسمى .

تارة « الذخائر » ، وحيناً « النفائس » ، وطوراً « السكنوز » ، وأنا تسمى « التراث » . وليس أدل على هذا النزوع العميق من أنك لا تكاد تجد مؤسسة ثقافية ، حكومية كانت أو أهلية ، إلا رأيتموها قد جعلت في طليعة أهدافها البحث عن هذه الأصول وتحقيق نصوصها . وتقريب مناهلها من الأنظار والأفكار ، متخذة لها في ذلك اسم « البعث » ، أو « الأحياء » ، أو « النشر » ، أو ما إلى ذلك من الأسماء التي تشعر بحالة ما ترمى إليه من هدف .

ولا ريب في أن لهذا النزوع مغزى كبيراً في واحة الرأي العربي العام ، ذلك المغزى هو أن أبناء العروبة اليوم في كل مكان حراس على أن يحتفظوا للشخصية العربية بذلك الطابع المستقل الذي تجلت عبقريته فيما شاد من حضارة فكرية وعمرانية تشرق بها صفحات التاريخ . وقد كان في عناصر تلك الحضارة ما مهد الطريق من بعد للحضارة العالمية التي تعيش فيها البشرية الآن . فالعرب باعترازهم بلغتهم ، وإجلالهم لما خلفه لهم أسلافهم في هذه اللغة من مدد عقلي غزير ، ييغون أن يقرروا في وجدان كل عربي أسس هذا الاعتزاز والإجلال ، وذلك إلى جانب إيمانهم بأن في هذا التراث بزورا صالحة الانتفاع بها على تعاقب الأحقاب . وهم من أجل ذلك ، ومن أجل وحدة الفكر العربي التي شملت أوطان

العروبة في عصورها المتطاولة ، يعتبرون الأدب العربي والثقافة العربية خلال تلك العصور غذاء حياً يجب التزود منه للحاضر والمستقبل .

ولكن هذا النزوع الروحي الموصول بروابط تاريخية واجتماعية ، وشائج من وراثات الدم والنسب ، المستمد من الوعي الديني المقدس ثباتاً وركانة ، لا يقف سداً دون نزوع آخر يناظر ذلك النزوع قوة وحيوية وحرارة إيمان ، وهذا النزوع الآخر هو الإقبال على كل جديد من مناهج الأدب ، والاغتراف بما أفاضته العقلية الحديثة من مناهل المعرفة . فالفكر العربي الذي اتسع قبل ألف من السنين لحكمة الهند ، وثقافة الفرس ، وفلسفة يونان ، حتى استوعب ضروب المعارف والآداب في مختلف الأمم على اختلاف العهود ، يستبقى اليوم في كيانه هذه المرونة ، وسعة الأفق ، وخاصية الامتصاص ، ويعمل جاهداً على أن يمثل ما جد تحت الشمس من أدب ومن ثقافة ومن عرفان . وهو لا يؤمن بأمثل القائل بأنه « لا جديد تحت الشمس » ، ولكنه يقتدى بما جاء في الأثر من أن « الحكمة ضالة المؤمن ، فحيثما وجدها أخذها » .

كانت البعثات تعود إلى الوطن العربي مزودة بما أفادت من ثقافة أوروبية جديدة، وبما اطلعت عليه من ألوان الفنون والآداب، فتفرغت لترجمة منتخبات من تلك الثقافة الجديدة والآثار العلمية والفنية، فأناحت للجيل العربي الناشئ أن يفتح عليها عينيه، ويملا منها عقله ووعيه، وقد سادت الترجمة ذلك العهد، وكان أكبر الجهد مصبوبا في ناحية تطويع اللغة العربية للتعبير عن المعاني والأغراض التي تحتويها الكتب المراد ترجمتها، ولذلك اتجهت الأنظار إلى ألفاظ اللغة العربية في مختلف عهود حضارتها لاستخراجها والاستعانة بها في أداء تلك المعاني والأغراض، وبخاصة في ميدان العلم، وبذلت المحاولات لصوغ ألفاظ جديدة. يصطاح عليها لكي تسد حاجة التعبير في هذا الميدان.

ويمكن القول بأن السكتب التعليمية والمؤلفات التي تتناول فروع العلوم والصناعات كان لها نصيب الأسد من عناية المترجمين في ذلك العهد، أما السكتب الاجتماعية فلم يكن لها إلا حظ قليل، وأما السكتب الأدبية فكانت أقل حظا. ومرد ذلك إلى أن العصر كان عصر بناء وتكوين، فالحاجة إلى العلم أقوى، واكتساب الصناعة أجدى، وهذه المعارف العملية في الحياة هي الأساس في

إقامة صرح المجتمع المتحضر ، وتقويم العقلية التي تسير الزمن وتتطور معه ، ولم يكن الأدب في ذلك الحين إلّا لونا من الترف الفكري ، يتخذ للمتعة والسوى ، فلم ينفصح له مجال رحيب في عهد الجد والإنشاء والتعمير . ولذلك بقي الأدب العربي القديم — في عهد الترجمة للعلوم والفنون — هو المورد الذي يستقي منه الأدباء ، بيد أن هؤلاء الأدباء كان لهم فضل في إمداد المترجمين بالألفاظ والتعبيرات التي تذلل لهم عقبات الترجمة ، وترتفع بأساليبهم إلى المستوى السكتاني المقبول ، فأصبح من مهمة الأدب يومئذ خدمة لغة العلم وموازرتها بما يوفر لها دقة الأداء وسلامة التعبير . ومن ثم نرى أن الأدب والعلم يتمازجان في طائفة من أعلام ذلك العهد ، ونذكر من بينهم أعلام صوتا ، وهم : « رفاة الطمطاوى ، ود علي مبارك ، ود عبد الله فكري » .

٢

وبعد مرحلة الترجمة التي كانت علمية في الأغلب ، بدأت النهضة تدخل في مرحلة أخرى تحريرية لإصلاحية في شتى مناحي الحياة السياسية والاجتماعية ودينية ، فطالعتنا قيادات فكرية متعددة المراكز تبشر بنظم وأهداف ، وتدعو إلى هدم وبناء ، وساعد على تقوية هذه القيادات الفكرية نشوء الصحافة ، وشيوع الطباعة ،

وقيام الأندية والجماعات والروابط والمجاس الخاصة لتلك الطبقة المستنيرة من أهل الرأي . وفي هذه الحقبة لمعت أسماء : « الأفغانى » و « محمد عبده » و « الكواكبي » و « قاسم أمين » و « سعد زغلول » و « لطفى السيد » ، فكان هؤلاء الفرسان أثر عميق في توجيه الجيل الجديد وجهة جديدة في فهم الحياة وتقويم المبادئ التي تسلم المجتمع العربي إلى تقدم وازدهار .

في هذه المرحلة كانت مهمة الأدب الأولى خدمة تلك الأغراض الإصلاحية والنقد الاجتماعي والثورة على التخلف والضعف ، وحث الهمم على نفض غبار الخمول ، وتنفير النفوس من آثار الاستبداد والاستعباد . وأكبر ما تمخضت عنه تلك المرحلة من الإنتاج الأدبي في ميدان الشعر هو القصيدة الوطنية أو الأخلاقية ، وفي ميدان النثر هو المقالة الاجتماعية . فالشعراء والمقاليون كانوا يومئذ دعاة تحرير وتوجيه وإيقاظ .

أما في غير هذا المجال فكان الأدب يتراءى في بعض ما يعبر به الشعراء عن ذات أنفسهم من خواطر ، أو ما يصفون به ما تقع عليه أعينهم من مرثيات .

وكذلك كانت تتراءى لمحات أدب فني فيما كان يقدمه « يعقوب صنوع » من مسرحيات مقتبسة ، وما كان يقدمه « عثمان جلال »

من مسرحيات أعلى مستوى في الاقتباس ، وما كان يقدمه دأبو خليل القباني ، من مسرحيات مستلهمة من « ألف ليلة » وغيرها من تراث الأدب العربي القديم ، وما كان يجرى به قلم د عبد الله النديم ، من أقاصيص فكهة الروح ، شعبية الطابع . إلى غير ذلك من النظائر والأشياء التي تتفاوت في الجودة من ناحية التعبير ، وفي المستوى الفني من ناحية الموضوع ومعالجته .

٥

ولقد كان من مظاهر عصر النهضة الرغبة في تحرير المرأة ، وذلك بإنهاء عهد الحجاب وإشاعة السفور ، بحيث تستطيع المرأة أن تسهم في ميدان العمل وفي بناء المجتمع ، والتقاليد يومئذ تحول دون خروج النساء ، واشتراكن مع الرجال في علم أو أدب أو صناعة ، وتقصر عملهن على إدارة دفعة الأسرة داخل جدران البيوت بمنزل عن أضواء الطريق . وتجلت بشائر تحرير المرأة في بزوغ شاعرة هي السيدة عائشة التيمورية ، التي كتبت أشعارها باللغات العربية والفارسية والتركية ، وألفت بعض القصص على نمط « ألف ليلة » ، وقد خلفتها في حمل لواء الأدب النسوي الحديث السيدة د ملك حفني ناصف ، التي ظهرت براعتها في فصول كتبها في الصحف باسم « باحثة البادية » ، وتعتبر د ماري زيادة

التي ظهرت فيما بعد باسم « الأنسة مي » نموذج المرأة المتحررة التي اكتملت ثقافتها العربية والأوربية ، وأوتيت موهبة التعبير في مستوى فني أصيل . وقد اقتعش الأدب النسوي بعد ذلك بفضل تعليم المرأة ودخولها الدراسة الجامعية واشتراكها في ميادين الثقافة وفروع الأعمال ، فأصبح من النساء عدد كبير ، فيه من يشتغلن بالصحافة ، وفيه من يمارسن الأدب ، وفيه من يكتبن القصة ، وفيه من يشاركن في البحث والتأليف والتعليم .

٦

وقد نبئت أثناء هذا العهد نابتة من المثقفين ثقافة أجنبية ، اطلعوا على ضروب من آداب الغرب ، وكثير من هؤلاء ينتسبون إلى تلك الرقعة العربية الواسعة التي كانت تسمى « الشام » ، حاوية فلسطين وسورية ولبنان ، فعكفوا على الترجمة ، وقربوا إلى العربية جملة من الأدب القصصي ومن أدب المسرح ، فلقى هذا اللون الجديد حفاوة وقبولا عند القراء العرب ، وتمافتوا عليه يطلبون منه المزيد . وهكذا أخذت ترجمة الأدب تقوى وتزدهر ، وتحتل في عالم الصحافة وفي عالم النشر أعز مكان .

وقد بلغ من كثرة الترجمات في تلك الحقبة وما تلاها أن إحدى دور الكتب العامة في الشرق استطاعت إحصاء عشرة

آلاف قصة بين طويلة وقصيرة ترجمت إلى العربية قبل الحرب العالمية الأخيرة .

وليس من عجب أن تلقى القصة بمنهجها الغربي هذه الخطوة من نفس القارئ العربي ، وأن يتزاحم عليها ليروى بها ظمأه إلى الأدب الفني ، فإن الشعب العربي شعب قصاص بطبعه ، والقصة عريقة في أدبه ، تسرى في روحه ، وله منها وراثات قديمة مختلفة المنابع . وحسبك أنه ذلك الشعب الذي اتخذ في شتى عصوره السوالم من القرآن مثله الأعلى ، وهو أحفل مصدر للقصص التاريخي الرفيع . وحسبك أيضاً أنه ذلك الشعب الذي تمخضت موهبته الفنية عن حشد زاخر من الأسمار والنوادر والأساطير انتهت به إلى ذلك اللون من القصص الشعبي الذي عرفه العالم أجمع ، وخاصة ألمع جوهرة فيه ، وهي حديث شهر زاد ، في ألف ليلة وليلة .

وفي هذه الحقبة ترجمت آثار قصصية تتفاوت قيمها الفنية ، فكان منها الأصيل ، وكان منها الهزيل . وكذلك تعددت مصادر هذه الآثار المترجمة ، فكان منها الإنجليزى وكان منها الفرنسى ، على أن المترجمات عن الفرنسية كانت هي الأكثر الغالبة . وقد عرف القارئ العربي بفضل هذه الترجمات أعلام الأدب الأوربي ، (م ٢)

أمثال « شكسبير » و « مولير » و « راسين » و « كورنى » و « لامارتين » ،
و « شاتوبريان » و « فكتور هوغو » ، يقدمها إليهم كتاب لامعون ،
أمثال « نجيب الحداد » و « فرح أنطون » و « خليل مطران » ،
و « حافظ إبراهيم » و « أحمد زكى » و « محمد عوض محمد » .

٧

ولم تلبث الأنماط القصصية الأوربية أن أثرت فى وعية
الكاتب العربى ، فهفت نفسه إلى محاكاتها ، ومواتاة لغته القومية
بمثالها ، فكانت أولى محاولات المحاكاة الناجحة متصلة بميدان
الرواية التاريخية . ذلك أن « جورجى زيدان » أحد أقطاب
الصحافة الأدبية فى صدر النهضة كان له فضل التنبيه إلى تقديم تاريخ
الإسلام فى إطار روائى يدور أكثره حول محور غرامى ، وقد
حرص على التزام ما سجله التاريخ من وقائع وأحداث ربط بينها
بخيوط قصصية يتجاذبها أبطال من عالم الحقيقة أو من وادى الخيال .
ولا ريب فى أن هذا الإطار الروائى عليه مسحة من القصة فى مدلولها
الحديث ، بما تقوم عليه من عناصر الحادثة والعقدة والنهاية ، وما
يتصل بهذه العناصر من تدبير المفاجآت وبث روح التفكيك
والتشويق ، ولكن هذه الروايات مع ذلك من الناحية الفنية البحتة
ومراعاة المستوى القصصى الرفيع تعتبر مرحلة أولية للقصة التاريخية .

في الأدب العربي ، وهذه المرحلة هي التي مهدت الطريق من بعد لطائفة من الكتاب والأدباء تناولوا أحداث التاريخ وشخصياته ، على أسس فنية من التحليل النفسي والتفسير الاجتماعي ، ومن استبطن ما وراء الظاهر من الوقائع والأحداث . ويحضرني في هذا المقام ما قدمه « إبراهيم رمزي » في « باب القمر » و « الحاكم بأمر الله » ، وما قدمه الأستاذ « محمد فريد أبو حديد » من قصص شتى مستقاة من تاريخ العرب قبل الإسلام ، وما قدمه « الدكتور طه حسين » في كتابه « على هامش السيرة » وكتاب « الوعد الحق » . وأسمح لنفسي بأن أشير إلى بعض محاولات لي تناولت فيها بالمعالجة والتحليل حياة « امرئ القيس » عبقرى الشعر في العصر الجاهلي ، وحياة « الحجاج » أشهر الحكام في عصر « بني أمية » ، وحياة « عبد الرحمن الداخل » الملقب « بصقر قریش » وهو أحد الذين أقاموا دولة في بلاد « الأندلس » التي أطلق عليها فيما بعد اسم « الفردوس المفقود » . وأهم ما في هذه المسرحيات التاريخية أنها نحت منحى الاستلهام النفسي ، والتعليل الاجتماعي ، والكشف عن حقيقة البطولة الإنسانية في موطن ضعفها وفي ذروة قوتها .

ولقد كانت هذه السنوات التي قوى فيها تعرف الأدب العربي إلى القصص الغربي امتدادا لعهود سياسية من الضغط والاضطهاد عانت فيها الأمة مرارة التحكم الأجنبي ، فسادت موجة من المشاعر الحزينة تعبر عن المسكينة والانسكاس ، وأنست النفوس إلى الاسترسال في الحديث عن مآسي الحب والفقر والعادات وآثار التخلف الاجتماعي ، فانعكس هذا كله على السكاتب القصص والمترجم القصص جميعا . ومن ثم رأينا القصة تأليفاً وترجمة تنساق في هذا التيار ، ورأينا السكاتب تتودد إلى الاسماع بأمثال هذه العتوانات الشاجية : « اليتامى » و « البؤساء » و « المساكين » و « العبرات » و « الذبائح » و « الضحايا » و « الأبرياء » و رسائل الأحران ، و « آلام فرتر » و « الأجنحة المتكسرة » . وكذلك كان من هم السكاتب أو المترجم إشار القصص ذوات الخواتيم الفاجعة المثيرة ، تلك القصص الحافلة بالاشجان الجسام ، فيها تنصب ألوان النحس والبؤس على رموس الأبطال ، فيسقطون في ميدان الكفاح ، مضرجين بدمائهم تحت مطارق الظلم والعنت ، تحف بهم عواطف الإشفاق والرثاء .

وقد نبغ في تلك السنوات أديب فصيح الأسلوب ، ناعم العبارة ،

يحسن تصوير الشعور الحزين ، ذلك هو والمنفلوطي ، فألف بعض القصص على هذا الطراز ، وصقل بأسلوبه المتين قصصا مترجمة ، فكانت هذه وتلك الخانا طربت لها الأسماع ، ومالت إليها النفوس ، وظلت أهازيج رائعة ترنم بها الجيل الماضي ، ووجد فيها شفاء لروحه المكلومة وقلبه المسكروب . واليقين أن والمنفلوطي ، كان يعرف ذلك من شأنه ، إذ قال في مقدمة «عبراته» : «الاشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو كثيراً من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات لعلمهم يجدون فيها تعزية وسأوى» .

ولا مندوحة لنا من الجهر بأن هذه الآلام والمآسى والفواجع التي دار حولها يومئذ الأدب عامة والأدب القصصي خاصة ، تشيع فيها السطحية والعمومية ، ولا تتناول من النفس دقائقها الخافية وأسرارها الدفينة ، وطريقة العرض فيها لم يكن لها من قوة الأداء ومنطق التعليل ما يرفع مستواها الفني ، وما يمنحها نفحة الخلود .

في تلك الفترة علا صوت التعبير الذاتي ، والخوارج الشخصية ، وتزاحمت أنغام الشكوى والأين ، ومناجاة الأطياف ، والإيغال في وصف العاطفة ، والجنوح إلى لون من الروحانية والتصوف ، وإطلاق العنان للأخيلة والأوهام . وأذكر أنه كان ثمة موضوع

لا يكاد يسلم من الكتابة فيه أديب ، ولا من التغنى به مطرب ،
ذلك الموضوع هو نداء الليل ومسامرته ، وبشه ما في الصدر من
وجد ولوعة وحنين .

وفي استطاعتنا أن نقيين في الأدب في تلك الفترة سمات
والرومانسية ، مع اختلاف دوافع توافرها في الأدب العربي يومئذ
ودوافع توافرها في العصر الرومانسي للأدب الأوربي . فإن عصر
الرومانسية في أدب الغرب مرجعه إلى انتقال المجتمع الأوربي من
عصر الأرستقراطية والإقطاع إلى عصر الطبقة الميسورة أو الطبقة
الوسطى « البرجوازية » واستقبال عهد الآلة التي تطورت بها
أوضاع الاجتماع والاقتصاد ، وهان بها شأن الفرد في العمل الفني ،
فضاق الفنان بالقوالب الآلية التي غزت عصره ، ورأى نفسه قد
غدا قابلا مثلها تحكمه حياة معقدة لا شخصية له فيها ولا كيان ،
فتطلع إلى تعبير تعترف فيه الفردية ، ومن ثم تجلى في الأدب الرومانسي
الاعتداد بالعاطفة والإحساس والخيال ، والانتفاض على
أوضاع المجتمع ، ومناصرة الفكر الحر ، والاتجاه إلى عبادة الطبيعة
وما فيها من جمال ، هربا من وطأة الحياة المادية وسلطان
« الآلة » ، ومن القيود في الشكل ، ودعمها للشخصية المستقلة ،
واستنقاذا للفردية الضائعة . أما سمات « الرومانسية » في الأدب

العربي إذ ذاك ، فقد كان الدافع إليها ماضق به المجتمع العربي من
كبت وحرمان وضغط سياسي وركود اجتماعي ، وضعف في المستوى
العلمي والاقتصادي ، فتأقت النفوس إلى تنفيس وترفيه ، بالاسترسال
في متع الخيال ، والطيان مع العواطف الملتهبة ، فرارا من جفاف
الواقع وجوده ، وأنسا برحيق الأوهام في كبوس من ذهب وهاج .
وهي الرغم من اختلاف الدوافع بين نشوء المذهب الرومانسي في
الأدب الأوربي القديم ونظيره في الأدب العربي الحديث ، نجد
المشابهات بينهما واضحة كل الوضوح ، في المظاهر والنتائج ، فكلاهما
يقوم على العاطفة والخيال ، وكلاهما يؤثر انطلاق الفكر وحرية
التعبير ، وكلاهما يندش تقويم الذاتية الضائعة ، واستنقاذ الشخصية
بما يحيط بها من قيود وأغلال .

٩

وبينا الأدب العربي في الشرق يومئذ يستغرق في رومانسيته ،
إذ هبت عليه نفحات أدب عربي روماني أيضاً من وراء المحيط ،
حيث الدنيا الجديدة ، فقد كان هنالك في « أمريكا » مهجر الجماعات
عربية من « لبنان » و « سورية » ، فنشأ منهم أدباء تأثروا بالحياة
الغربية وآدابها ، واعتملت في نفوسهم مشاعر الغربة والحنين إلى
الأوطان ، فأفاضوا في التعبير عن نزعاتهم في منحى أوفر حرية

وأبعد انطلاقا ، حتى إنهم في أساليبهم لم يبالوا ما تواضع عليه علماء
العربية وأدباؤها من الأصول والقواعد كل المبالاة . وكان في
الأدب المهجري فن شعري يجرى في الجملة من حيث الشكل على أوزان
الشعر العربي وقوافيه ، وأما من حيث الموضوع ، فقد كان يحفل
بالطريف المستحدث من المعاني والأغراض . على أن تلك النابتة
الجديدة من أدباء المهجر قد ابتدعت ما سميناه « الشعر المنشور »
وهو محاولة لسياقة المعاني الشعرية على نمط جديد يختلف عن
القصيدة العربية الاتباعية السكلاسيكية في ناحيتين : الأولى التحرر
من الوزن والقافية ، والآخرى وحدة الموضوع وتسلسل أفكاره
تسلسلا نفسيا متداعجا لا افتعال فيه ولا استطراد . وقد تميز الأدب
المهجري بالجدة والطرافة ، وبرهافة الحس ورقة الشعور ، وبالسلاسة
والعنوبة . وكان في جملته دما جديدا اغتذى به الأدب العربي ،
وجرى في شرايينه ، فأورثه الحيوية والحرارة والانتعاش ، ولا
يلسى تاريخ الأدب الحديث أعلام الأدباء المهجريين ، وفي مقدمتهم
« جبران » و « الريحاني » و « نعيمة » و « إلياس أبو ماضي » .

١٠

وكان الشعر العربي وقتئذ قد استقبل عهداً جديداً من الازدهار
أسلمته إليه وثبة « البارودي » الذي يعتبر مجدد الشعر في مطلع
العصر الحديث .

وإذا كان البارودي ، قد انحصر تجديده في جانب قوة النسيج ، وفصاحة اللفظ ، وخفولة التعبير ، محاكاة لأعلام الشعراء في العصور العربية الزاهية ، فإن الشعراء الذين قفوا على أثره قد استفادوا إما استفادة من الرقي العلى والعقلى والاجتماعى في عصرهم الحديث ، فأصبح التجديد في شعرهم شاملاً للموضوعات ، إذ تناولوا أحداث السياسة ، وعبروا عن الحركات القومية ، ونددوا بما كان شائعاً من الظلم والاستعباد ، وبما كان فاشياً من المساوىء الأخلاقية والاجتماعية ، وذلك كله إلى جانب تعبيرهم الفنى عن إحساسهم نحو جمال الطبيعة وبحاسن السكون ، وعن خوالجهم النفسية التى يستجيبيون فيها للحياة ، ويعالجون مشكلات المجتمع البشرى ، ويهيمنون فى سرائر الوجود .

ونحن حين نذكر «شوقى» و«حافظ» و«مطران» و«صبرى» و«بشارة الخورى» و«الزهاوى» و«معروف الرصافى» و«عبد الرحمن شكرى» و«العقاد» و«المازنى» وأضرابهم ، لا ننسى أنهم صفوة من الشعراء أتاحت لهم الوان ثقافة متشعبة ، بفضل ما قرءوا فى العربية من تراث الأدب العربى ، وبما ترجم من نتاج الفكر الأوروبى ، ومنهم من قرأ فى غير العربية ذلك النتاج الفكرى ، فارتفع بذلك مستواهم العقلى ، ونضجت أذواقهم .

الأدبية ، وظهر أثر هذا النضج والسمو فيما طرّقوا من موضوعات ، وما سبّحوا فيه من أخيلة ، وما نظموا من قصيد .

كثّر في هذا الشعر التغنى بالأخلاق ، وبالمثل العليا ، والإشادة بأبجاء الماضى ، سواء أكانت من جانب العرب ، أم من جانب الفراعنة ، كما قوى التمجيد للحرية ، وتقديس الفداء ، والإعزاز لمواقف البطولة الوطنية والجهاد من أجل العقيدة والرأى ، وبذلك صارت دواوين أولئك الشعراء مرآة ينعكس عليها في جلاء ما اضطرم في الوطن العربى من كفاح قومى ، ونشاط فكرى ، وأمان وطنية ، ومن مثل سمّت إليها الأفسكار في هذا العصر الحديث .

ولا يمكن القول بأن الشعر العربى في جملة قد استمد في تجديده في تلك الحقبة من الشعر الأوروبى شيئاً يذكر ، وإن كان الشعراء قد استفادوا على وجه عام ثقافة العصر الحديث . ولعل ذلك لأن الأمة العربية التى رحبت كل الترحيب بترجمة ألوان شتى من أدب الغرب ونتاجه الفكرى ، لم ترحب كثيراً بترجمة الشعر الغربى ، وإذا حاولنا أن نتعرف السر في ذلك وجدناه في ناحيتين : الأولى صعوبة ترجمة الشعر من لغة إلى لغة ، فالقصائد تفقد في اللغة المترجمة إليها إيقاعها وموسيقاها وما يمكن فيها من خصائص

التعبير وإيجاءاته ، والجمال الفني في الشعر مرجعه إلى الإيقاع والموسيقى وخصائص التعبير والإيجاء . والناحية الأخرى للعزوف عن ترجمة الشعر الأوربي إلى اللغة العربية أن الشعر العربي عريق في تقاليد وسماته ، وأنه أصيل في تناوله للمشاعر والتخلجات على أوسع نطاق ، وأن لغته قوية متقنة فيها الرقيق الرهيف ، وفيها الجزل المتين ، وأن الشعراء العرب على تعاقب العصور قد مروا على الأداء الشعري وبرعوا فيه ، وأنهم قد تفننوا في موضوعاته ، فلم يدعوا وصف الطبيعة ولا الانطلاق مع أهواء النفس ، ولا تلمس مظاهر الجمال في المعاني والصور ، ولا التعمق في فلسفة الحياة ، ولا تصيد أسرار الحكمة ، ولا تمثيل الغرائز والأخلاق ، ولا الكشف عن تجارب البشرية . ولذلك لم تكن للشعر الأوربي سوق رائجة عند القارئ العربي ، بل إنه لم يكن لشعر غير عربي أية حظوة عنده ، إلا ما كان لتلك المقطعات التي سميت « رباعيات الخيام » . وربما كانت العلة في حظوتها أن روحها قريب من الروح الشرقية التي ينسجم بها أدب العرب ، أو أن ترجمة هذه الرباعيات شعراً كانت أقرب إلى التأليف منها إلى الترجمة في اللسان العربي .

ويظهر أن اعتزاز الأمة العربية بمجد الشعر العربي هو الذي قضى حتى الآن على مختلف المحاولات التي أريد بها بجانب الأوضاع

والأشكال المتوارثة للشعر العربى . وما لاشك فيه أن القارىء العربى لم يأنس بتحرير الشعر من الوزن والقافية ، ولم يرحب كذلك بالشعر المنشور ، أو بالشعر المرسل . وربما كان ذلك لأن أوزان الشعر وقوافيه لم تكن فى أول نشوئها وليدة صنعة أوزخرف اتخذها الأدباء فى عصور المحسنات البيانية والتزاويق اللفظية ، بل كانت هذه الأوزان والقوافى فى قصائد الشعر العربى وليدة الفطرة الإنسانية فى مناجاة النفس على رحاب الصحراء الطليقة ، وتحت سمائها الدائمة الصحو والإشراق . ولذلك وجد فيها القارىء العربى - من بعد - استجابة لما تهفو إليه نفسه من إيقاع موسيقى ينسجم مع العاطفة والوجدان ، ومن ثم استمسك بهذه الأوضاع الشعرية ، لأنه استطاع بما فيها من مقاطع أن يلحن تلك الجمل التى تصور العواطف والنزعات والأحاسيس . فلكأن هذا الشعر العربى يجعل من كل قارىء مرتل له موسيقيا بلا أداة ، إذ يجد فى أوتار الأوزان والقوافى والمقاطع رنين الأنغام وإيقاع الألحان التى تهز نفسه فتحرك ما يكن فيها من شجو ، وتواتيها بما تهفو إليه من طرب .

وليس معنى هذا أن نغض من شأن التجديد الذى لحق الشعر العربى الحديث ، فقد تناول من الأنواع الأدبية ما لم يكن يتناول من قبل ، وقد اتصل بمختلف المذاهب الفنية عن قرب أو عن بعد ،

وبذلك يمكن القول بأن الاتجاهات الفكرية والثقافية والأدبية التي
تأثر بها الجيل الحديث من جانب الغرب قد كان لها صدى ودوى
في تطوير الشعر العربي ، وقد ظهرت آثارها في نتائج الشعراء .
ويكفي أن نشير إلى أن « شوقي » شاعر العصر الحديث قد أنشأ
المسرحية الشعرية الراقية في ديوان الشعر العربي ، إذ أخرج
« عنفرة » و « مجنون ليلي » و « قهبيز » و « مصرع كليوباترة »
و « على بك الكبير » وغيرها ، وهي مسرحيات تجمع إلى مهارة
النظم ، وروعة الأخیلة الشعرية ، وتنويع الأوزان والقوافي
بحسب المعاني والمواقف ، حبكة فنية لها قيمتها ، وحواراً روائياً
خلالها ، إلى جانب قدرة الشاعر على تمثيل المواقف التاريخية ،
وتصوير الشخصيات على نحو مقبول ، وتعليل التصرفات
والأحداث تعليلًا لا يخلو من سلامة المنطق ، وموافقة الطبع
البشري . وعلى الرغم من أن هذه المسرحيات كانت فتحاً جديداً
في الشعر المسرحي ، وشقاً لأفق في الأدب العربي ، فإن تلك
البواكير توافر لها الحظ من النضج والإيناع . و « شوقي » هو
الذي مهد الطريق للشعراء من بعده كي يتابعوا إثراء الشعر
العربي بذلك اللون من المسرحيات الشعرية . وقد تفوق من بينهم
الشاعر « عزيز أباطة » الذي اتخذ نهج « شوقي » إماماً له : فأخرج

« قيس لبنى ، ود العباسة ، ود الناصر ، ود شجر الدر ، وغيرها »
من روائع المسرحيات التى عقدت له لواء الإمارة الشعرية فى هذا
الميدان .

وكان من ظواهر التجديد فى الشعر محاولة تطويع القصيدة
العربية للتعبير الإيحائى وفق مذهب الرمزية فى الأدب الفنى ، ويتميز
هذا اللون من الشعر بدقة الفكر ، وعمق التأمل ، والتمرد على
الظاهر من الأوصاف ، والمطروق من المعانى ، والمبذول من
الأغراض ، فى هذه القصائد الرمزية تصيد للباطن بما يعمل فى
النفس ، وما يكمن وراء الحس ، حيث تتشابك الانطباعات
وتتداخل ، وأداء ذلك أداء رمزياً دون تصريح ، وذلك بالجنوح
إلى الأطياف والظلال ، والاعتماد على النغم الشعرى الرفاف .
ويعتبر الدكتور « بشر فارس » بين من مارسوا هذا اللون أكثرهم
فهما له ، وإيماناً به ، وتمجيذاً لمنزلته بين مذاهب التعبير الشعرى .

١١

وإذا كانت المعاهد التعليمية المختلفة قد قامت بقسط كبير فى
تثقيف الجيل الذى اضطلع بأعيان النهضة الحديثة ، وإذا كانت حركة
التأليف والنشر قد غذت تلك الجهود التربوية فى تنشئة الجيل
وإمداده بالوعى العلمى والثقافى ، فإن هناك الصحف اليومية والمجلات

الأسبوعية والشهريّة التي يرجع إليها أكبر الفضل في تثقيف الجمهور العام وإروائه من مناهل العلوم والفنون والآداب على تباين مصادرها الشرقية والغربية ، وعلى اختلاف ألوانها القديمة والحديثة .

كانت الصحافة وسيلة ناجحة للتثوير والتوجيه ، وذلك ليسرها على الكاتب والقارئ معا ، فالكاتب يجد فيها ميدانا قريب التناول للتعبير عن رأيه ، ونشر ما تجود به القريحة ، وبسط ما يهدى إليه البحث والدرس ، إذ ليس الطريق ممهدا أمام كل كاتب لإظهار ذلك في كتاب يطبع . والقارئ كذلك لا يتعذر عليه أن يحصل على صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية أو شهرية يستمتع فيها بالوان ثقافية مختلفة ترضى شتى الأذواق ، وتلائم شتى المستويات .

وقد تعددت الميادين الصحفية ، بين دينية وعلمية واجتماعية وأدبية وفنية ، ولا يستطيع باحث في مصادر الاتجاهات الأدبية للعصر الحديث أن ينسى الأثر الكبير الذي أحدثته في رسم تلك الاتجاهات المجلات الشهرية والأسبوعية ، كالمقتطف والهلل والمنازل والهداية الإسلامية والزهور والسفور والسياسة الأسبوعية ولغة العرب والمشرق والجديد والحديث والمجلة الجديدة والرسالة والثقافة وعشرات غيرها ، ولا الصحف اليومية كالأهرام والجريدة واللواء والمؤيد والبلاغ وسواها .

إن هذه المجالات والصحف كانت في ذلك الزمن بمثابة جامعات منتظمة ، تتطّير منها المعارف المبسطة ، والآراء الجديدة ، والأفكار المتحررة ، والتوجيهات الثقافية ، والآثار الفنية ، على أوسع نطاق . وكثير من رجال الفكر والأدب ، كانت ينايهمهم فيما اكتسبوا من علم ومعرفة وإطلاع هي الصحف والمجلات أكثر مما كانت ينايهمهم معاهد تعلموا فيها أو كتباً تدارسوها ، ولا شك في أن الصحافة يومئذ كانت تسد النقص والحرمان الذي يشعر به المجتمع الشرقي من ناحية التعليم الجامعي الذي كان مفقوداً أو محدود المجال .

وهذه الصحافة هي التي استطاعت أن تتجه بأسلوب الكتابة اتجاهاً يطرعها للتعبير عن كل ما يتصل بالحياة الفكرية ، والكفاح الاجتماعي ، وتبسيط العلم والمعرفة للجمهور العام .

وقد استفادت بذلك اللغة العربية مرونة وسلاسة وقدرة على الأداء السهل السائغ الدقيق الخافل بالمعاني والأغراض .

وكذلك مما يذكر للصحافة أنها هي التي ازدهر في حقولها ذلك الفن الكتابي الذي أطلق عليه اسم « المقالة » ، فكانت أشبه بالثرثا التي تعين على التنفس في يسر ، ووجد الكتاب والأدباء فيها مجالاً للإفصاح عن خواطرهم والتعبير عن أفكارهم ، وأصبحت المقالة غذاء سهل الإعداد على الكاتب ، سهل الهضم للقارئ . وبلغ مز

خطر « المقالة » أن صارت مصدراً للتأليف ، وكثير من أمهات الكتب الأدبية العصرية إنما هي مجموعة مقالات ، . ولقد أدركت « المقالة » ذروتها الفنية على أقلام أدباء وكتاب أتقنوا صوغها وأحسنوا عرضها ، وفي مقدمتهم ولطف السيد ، في مقالاته التي جمعت في كتابه « المنتخبات » ، و « التأملات » ، والدكتور « منصور فهمي » ، في مقالاته التي جمعت في كتابه « خطرات نفس » ، و « عبد العزيز » ، « البشرى » في مقالاته التي جمعت في كتابه « المرأة » و كتابه « المختار » ، و كتابه « قطوف » ، وكذلك « المنفلوطي » ، في « النظرات » ، و « العقاد » ، في « الفصول » ، وغيره ، و « المازني » ، في « قبض الريح » ، وسواه ، و « أحمد أمين » ، في « فيض الخاطر » ، و « الرافعي » ، في « وحي القلم » ، و « الزيات » ، في « وحي الرسالة » ، وأمثال هؤلاء كثير .

١٢

ويعتبر الربع الأول من القرن العشرين في حياتنا الآبية مرحلة حث وتخطيط وإلقاء للبروز المختلفة ، وتعهد لها بالسقيا ، وتجربة لنباتها في حقول الأذهان . فكانت هناك نهضة لإصلاح دينية تعالج تنقية المعتقدات من الخرافات والأوهام ، وتصحيح الفهم لروح الدين وسلطانها على المجتمع السليم . ولا ينسى في هذه الناحية فضل (٣)

الرائد الأول « جمال الدين الأفغانى » ، وحامل الشعلة من بعده « الشيخ محمد عبده » ... وكانت هناك أيضاً نهضة لإحياء الثقافة العربية القديمة وتحقيق التراث الذى تركه أعلام الفكر والأدب فى الحضارة الإسلامية، وقد تولى إذكاء تلك النهضة وحمايتها من أن تقضى عليها الدعوات التجديدية المتطرفة طائفة من أعلام البحث والتحقيق أمثال : « أحمد تيمور » و « شكيب أرسلان » و « محمد كرد على » ... وكانت هناك أيضاً نهضة علمية تحاول الخروج بالتعليم من نطاق إعداد موظفين محدودى المعرفة إلى آفاق البحث الحر والمشاركة فى العلم فى ميادين الرحبة التى جاءت بها الحضارة الحديثة . وقد تجلّى مظهر هذه النهضة فى إنشاء « الجامعة الأهلية » التى أصبحت فيما بعد هى « الجامعة المصرية » الرسمية . وكانت هناك أيضاً نهضة تثقيفية عامة تجلّت فى التصانيف المختلفة وفى المجلات والصحف اليومية المتعددة ، فرأينا مثلاً « شبلى شميل » يبشر بنظرية التطور ، و « يعقوب صروف » يغذى القارئ العربى بمادة علمية مبسطة ، و « لطفى السيد » يوجه الأفكار إلى الأسس التى تتوافر بها تربية الفرد والجماعة ، ومن هذا كله شاعت فى الأمة روح علمية منهجية عالية فى مستوى البحث والدرس ، تتناول مشكلات الحياة وأوضاعها وما يتحقق به التقويم والتجديد والإصلاح ، كما شاعت

في الوطن العربي روح استقلالية تنفر من العبودية والتبعية ،
وتحاول إبراز الشخصية ، وتنشد التحرر والهيمنة على أجهزة الحكم
وتوجيهها وجهة تلائم منازع النهوض ، وأصبح الأسلوب الكتابي
الذي يعبر عن هذا كله أسلوباً واقعياً زاخراً بالموضوعات الوثيقة
الصلة بأعماق المجتمع ، المصورة لأماله وآلامه ، وأخذ الكتاب
يترفعون عن الزخارف والمحسنات اللفظية ، ويأبون الصنعة
والتكلف في التعبير ، ويبرأون من الإغراق في الأخيلة التافهة ،
ويتخلصون من الدوران حول الأغراض المسكرة المبتذلة المحصورة
في حدود من الأفكار العائمة والعلاقات الفردية السطحية .

١٣

وقد التقت هذه العوامل مجتمعة مع فئات من أبناء الأمة ثقفتهم
معاهد تعليمية أجنبية قامت في أرجاء الوطن العربي، وفئات أخرى
من الشباب الذين عادوا من أنحاء الغرب بعد أن اغترفوا من لغاتها
ومن ثقافتها ما اغترفوا ، وفي الوقت نفسه كان هناك «الأزهر»
و «دار العلوم» وغيرهما من معاهد تعمل على حفظ اللغة العربية
وإحياء علومها المتوارثة، وتقيم منها سداً منيعاً للاحتواء من هجمات
الأفكار المتطرفة في الدين والأدب والاجتماع ، وكان اجتماع
العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية والتعليمية على هذا النحو ،

وتباين المنازع بين المفكرين وحملة الأقلام يوم ذاك ، إذانا
بنشوب معركة «القديم والجديد» بين الذين يؤمنون بالثقافة العربية
من ناحية ، والذين يؤمنون بالثقافة الأوروبية من ناحية أخرى .

ولعل روح النهضة ، والخروج من هذا السبات الطويل الذى
عاشت فيه بلاد العربية ردحا من الدهر ، وتفتح الأعين على حضارة
غربية ساطعة الأضواء تبهير الأنظار - لعل ذلك كله أشعر الرأى
العربى العام بما يسميه علماء النفس «مركب النقص» ، وكان
لذلك أثره فى كل من حزب اليمين وحزب اليسار بين قادة الفكر
فى ذلك العصر .

فالمحافظون فى الصف الأيمن دفعهم «مركب النقص» إلى الخشية
من هذه الأمواج الدافقة التى اندفعت إلى الشرق من جانب الغرب
تحمل حضارة جديدة فى كل شأن من شئون الحياة ومرافقها
الاجتماعية ، فانبعثوا يدعون إلى المحافظة ، ويحذرون من التهاافت
على البريق الخلاب ، حتى لا يطغى من ورائه دفق الأمواج على كل
مقومات الأمة من عقائد وتقاليد وتراث عقلى وأدبى ، فيصبح
العربى طوعا لهذا الطغيان غريبا فى كيانه ووجدانه ، إذ تفتنه
مدنية الغرب بالألأئها ، وتجذبه نحوها ، فلا يبقى له من وجوده
الموروث أثر .

والمجددون في الصف الأيسر دفعهم « مركب النقص » أيضاً إلى الحملة على كل قديم ، والإيزراء بكل موروث ، إذ هالهم أن تتخلف الأمة عن ركب الحضارة الجديدة هذا التخلف البعيد ، وسمت همهم إلى ملاحقة الركب ، فأغراهم ذلك بأن ينادوا بنقد كل ما صاحب الأمة في عهود تخلفها من ثقافة جامدة ، ونظريات عتيقة ، لم تعد في نظورهم تصلح لعصر البعث والإحياء ، بل لقد كانوا يحسبون أن تلك الثقافة وهذه النظريات هي علة التخلف والضعف الذي منيت به الأمة ، وهي التي عوقتها عن التقدم والنمو والازدهار .

ولقد كان لمركب النقص الذي شعر به كل من الحزبين المتباينين في ميدان الفكر ، أثره البالغ في إنعاش حركة الأدب ، وإذكاء نشاط الفكر ، والتمرس بطرائق النقد ، ولئن دلت معركة القديم والجديد في هذه المرحلة من الحياة العقلية بين أنصار المحافظة والدعاة إلى التحرر على شيء ، إنها لتسدل على أن الشعب فيه حياة وفيه انتفاضة وفيه يقظة ووعي ، بيد أن ذلك كان يختلف اتجاهات وميولاً وآراء بحسب اختلاف ينابيع الثقافة والعقلية للأمة في تلك المرحلة التي لم تتوحد فيها مناهج التربية والتعليم . وإنما كانت معاهد العلم والدرس متشعبة بين وطنية وأجنبية ، بين شرقية وغربية ، بين

جمادة ومتحررة ، تكاد في تشعبها تتناكر في الطابع والروح .

ولا يسعنا الآن إلا أن نحسب هذه المعركة التي دارت بين المحافظين والمجددين ، فلن تبلى أمة بأسوأ من الخول والسكون ، حيث لا تفكير في جديد ، ولا نزاع على رأى ، ولا دفاع عن مذهب ، ولا موازنة بين موروث ومستحدث من تساج القرائح والعقول والأذواق .

وبما لا شك فيه أن هذا الاختلاف المذهبي والصراع النقدي كان خيراً وبركة على الأدب في توجيهه وجهة سديدة ، إذ أنه أفاد المحافظين والمجددين جميعاً ، في كبح ما بنفوسهم من جماح التطرف والاستئثار بالسلطان على العقول والأفكار ، وفي تحذيرهم من الق التفريط والإفراط ، فقد كان لاصطراع المذاهب والأهداف ما يشبه التلاقح والتطعيم ، ولذلك انتهت هذه المذاهب والأهداف إلى شيء من الاعتدال والتصالح والتوفيق ، بفضل مدار بين أشياءها وخصومها من تجاذب ونزاع .

١٤

وفي العهد الذي كانت فيه تتجمع الأسباب التي هيأت الأذهان من بعد لحوض تلك المعركة الحسامية ، معركة القديم والجديد ، في ميدان الفكر والرأى والمعتقدات ، كان هنالك نزوع عند ناشئة

الأدباء إلى توجيه الأدب نحو الاستجابة للحياة الاجتماعية المتطورة، والتعبير عن الطابع الوطني للأمة في مختلف نوازعها ، في أنماط جديدة تستوحى في صورها الأدب الأوربي الحديث ، وكانت القصة ، بمعناها الفني قبلة الأنظار لبلوغ ذلك الهدف .

وقد سجل التاريخ في العقد الأول من القرن العشرين للدكتور « محمد حسين هيكل » أنه وهو يومئذ شاب نازح إلى « فرنسا » يتلقى فيها دراسة الحقوق ، أجرى قلبه بكتابة قصة « زينب » التي تعد باكورة القصص الفني في الأدب العربي ، وقد احتوت وصفاً للريف المصري يتراءى من خلال أحداث القصة وشخصياتها ومشاهداتها .

وكذلك يسجل التاريخ في تلك الفترة لشقيقي « محمد تيمور » أنه لما عاد من « فرنسا » التي ذهب إليها حيناً لدراسة الحقوق أيضاً بدأ يعالج كتابة القصة القصيرة والمسرحية ، ويدعو إلى أدب مصري الملامح ، مستكمل للعناصر الفنية ، يعرض ألواحاً تصور بيئتنا القومية ، بما يعتلج فيها من مشاعر وأشجان .

وعلى نهجه تتابعت أقلام الجيل الصاعد من الكتاب ، فتألفت مدرسة الأدب القصصي الجديد ، وكان من روادها « شعاعته عبيد » و « عيسى عبيد » و « محمود طاهر لاشين » و « يحيى حقي »

و « إبراهيم المصري » . وكاتب هذه السطور ، محمود تيمور .
ومن الظواهر التي لا بد من التنويه بها في هذا الإنتاج القصصى .
الفنى الوليد أنه قد تميز في لغته بشيء من الحرية والانطلاق ، فلم
يكن التعبير فى القصص ملتزماً كل الالتزام أوضاع اللغة فى تقاليدها .
المتوارثة ، وما تتزين به من زخرف لفظى ومحسنات بلاغية ،
ولمّا كان أدباء الطليعة القصصية حراساً على أن يستكملوا مقومات .
الصيغة المحلية باستخدام اللغة الدارجة ، كثيراً فى الحوار ، وقليلًا فى
الوصف . وكان أولئك الرواد يحاولون أن يصطنعوا لأنفسهم
أسلوباً كتابياً تتوضح فيه شخصية الكاتب ، ولا يكون محاكاة .
وتقليداً للأساليب الكتابية التى تلتزم تلك الأوضاع القديمة .

١٥

وبعد طبقة الرواد التى كانت تشق الطريق لوضع أساس القصة .
الفنية فى الأدب العربى الحديث ، تراحت عشرات الكتاب
تعالج التأليف القصصى ، وماهى إلا أن لمع فى الأفق القصصى كاتب
نابهة يجمع إلى الثقافة العربية الأصيلة ثقافة أوربية جامعية ، ذلك
هو الدكتور د طه حسين ، ، حين شرع يكتب سيرة شخصية .
مكتملة العناصر الفنية للقصص الرفيع ، وهى سيرته هو منذ طفولته .
فكان لتلك السيرة التى حملت اسم « الأيام » ، صدى بعيد فى الأدب
الجديد .

وفي هذه الحقبة رأينا كتابا أدبيا من أقطاب نهضة القلم هو الأستاذ « إبراهيم عبد القادر المازني » يرسم لنا صورا قصصية تمتاز بالحياة والطرافة ورشاقة العبارة وظرف الحديث . ومن هذه الصور ما يتخذ شكل أحداث ينتحلها الكاتب لنفسه أو يحملها على من يعايشه من الأهل والصحب ، فيكشف فيها زوايا فكرية من جوانب الحياة وشئون الناس ، وقد احتوى هذه الصور كتابه « خيوط العنكبوت » ، و « صندوق الدنيا » وغيرهما . ثم كتب القصة الطويلة في ذلك المتحى الأنيس الذي عرف به ، فقرأنا له « إبراهيم الكاتب » وغيرها ، ولا يغفل الناقد الأستاذ « المازني » أنه كان على فصاحة أسلوبه وإبداعه البياني يحاول المزج بين العامة والفصحي في حصافة ولباقة وحسن اختيار .

وبينما كان كتاب القصة يومئذ يزاولونها على تفاوت في درجة الإتقان ، وتباين في فهم المعايير الفنية للأداء القصصي — سطع في سماء الأدب العربي نجم قوى الأعلام ، ذلك هو الأستاذ « توفيق الحكيم » ، إذ راع عصره بأدب مسرحي وقصصي يدل على معرفة تامة بأصول فن القصة وأوضاعه السليمة ، إلى أصالة في الفكر ، وعمق في الثقافة ، ورهافة في الحاسة الفنية للتصوير ، وحسنة في المعالجة والتحليل ، وروعة في الخيال ، وبراعة في إدارة الحوار .

وإذا نحن نقرأ له دأهل السكف، و «شهر زاد» و «عودة الروح» ، وما إليها من تلك البدائع الفنية التي انطوت على قيم فكرية واجتماعية وأدبية ليست محدودة بحدود إقليمية ضيقة ، ولكنها تستطيع أن تحتفظ بمستوى ملحوظ في سوق الأدب العالمى .

وهذه الجهود القصصية التي توجتها روائع الأدباء الأعلام استقرت مكانة القصة العربية بين فنون الأدب العربى المتوارثة ، من «مقامة» أو «مقالة» أو «رسالة» أو «قصيدة» ، بل إن القصة ظلت تزاخم تلك الفنون حتى وصلت إلى الصدارة ، فإذا القصة عنوان الأدب الآن .

١٦

حقاً لقد استهوت القصة مدفوعة الكتاب والمفكرين ، وتعددت على أقلامهم مناحيها وأساليبها ، فاكثرت الأدب القصصى الحاضر تجارب وخبرات من مزاوالات الأدباء له ، ومن ثمرات الرقى العقلى والثقافى والاجتماعى للأمة العربية التي تثب وثبات بعيدة في سبيل استكمال النضج والوعى .

وما يؤثر أثراً قوياً في تقويم الفن القصصى فى الأدب العربى مواصلة الترجمة على أوسع نطاق لأكبر الأعمال القصصية فى مختلف اللغات الأجنبية . فالقصص الإنجليزى والقصص الفرنسى والقصص

الروسي وغيره من قصص الآداب العالمية يتوافر في اللغة العربية ويتزايد يوماً بعد يوم .

كذلك مما كان له أبلغ الأثر في إنضاج فن القصة العربية انتشار الدراسات والمؤلفات التي تتناول علم النفس ، فقد كانت هذه الدراسات والمؤلفات سبيلاً إلى تنمية الوعي المكتابي ، والدقة في التحليل النفسي ، بالوقوف على نظريات الفلاسفة والمفكرين المحدثين فيما يتعلق بالعقل الباطن ، وتشابك الغرائز ، وصراع النزعات ، وسلطان ذلك على البواعث الظاهرة من سلوك البشر .

ومن الفنون القصصية التي نشأت حديثاً في الأدب العربي: فن قصص الأطفال ، ولا تذكر نشأة هذا الفن إلا ذكر معها اسم «كامل كيلاني» الذي شرع منذ ثلاث قرن يقدم قصصاً مقتبسة أو مخرجة إخراجاً عربياً جديداً من مصادر شتى ، بينها مصادر عربية مثل «ألف ليلة» وقصص «جحاء» . وإلى جانب ذلك قدم ترجمات مبسطة ملائمة لمدارك النشء من روائع «شكسبير» وغيره من أعلام الأدب الأوربي ، وقدم أيضاً نماذج كثيرة من الأساطير . وإذا كان الميدان اليوم حافلاً بأقنانين من أدب الأطفال ، مؤلفة أو مترجمة أو مقتبسة ، لعدد كبير من رجال التربية والأدب والفكر ، فإن «كامل كيلاني» يعتبر الرائد لهم في أدبنا العربي الحديث .

١٧

واللقاء نظرة عامة على أدبنا العربي الحديث فيما سما إليه من تجديد.
ومن مساهمة للأفكار العصرية في فهم رسالة الأدب ومهمة الأديب ،
ترينا أن أدبنا هذا قد مر أول أمره بعهد حاول فيه تعصير اللغة ،
بالاقتصار على الألفاظ الحية المأنوسة في الاستعمال ، وحاول فيه
تعصير الأسلوب بإخلائه من التراويق والمحسنات ، وحاول فيه
تعصير موضوعه بجعله أدبا محليا يستجيب للبيئة من حوله ، ويعبر
عنها . ولكنه في هذا العهد كله كان معنيا أيما عناية بالدوران حول
تصور العادات والتقاليد التي هي وليدة التخلف والجهالة وطغيان
حكم الاستبداد ، ومن ثم تنازع الكتاب مشكلات محلية موقوتة ،
مثل مشكلة الأخذ بالثأر ، ومشكلة تحكم الأهلين في زواج البنات ،
ومشكلات التزمت في الأحكام الأخلاقية وفرعها على المجتمع ،
والمشكلات العاطفية في مجتمع تسرى فيه روح الحجاب والحرمان
الجنسى — فكان الأدب يصور ذلك كله ، متخذاً له في أغلب
الأحوال هدفاً أخلاقياً هو الاقتصار للفضيلة وإعلاء كلمتها حين
تصير الأمور إلى الغايات ، وتنتهي المقدمات إلى النتائج . ولا شك
في أن النتاج الأدبي في ذلك العهد كان — طوعاً لتلك الفروض
والقيود — بآدي الضعف من الوجهة الفنية البحتة ، إذ كان يفقد

حرية الاستلham وحرية الأداء ، بيد أننا لا ننكر أن الأدب يومئذ قد أدى للأمة رسالة إصلاحية بعثت عليها الظروف والملايسات .

وقد شغل الأدب بهذه الاتجاهات المحلية الموقوتة ، والنقد الأخلاقي المحدود ، ومحاولة الإصلاح الاجتماعي في ذلك العهد ، عن لمس الأهداف الإنسانية العامة ، والمثل العليا في نطاقها الرحيب ، والمشكلات الدقيقة والمشاعر الأصيلة الناجمة عن الغرائز البشرية الثابتة .

١٨

على أن هذا العهد لم يلبث أن تقلص ، ليبدأ عهد جديد يرتقي فيه التعبير عن المشكلات الاجتماعية ، وعن البواعث الكيمنية للتقاليد والعادات ، وعن الأثر البعيد للملايسات الاقتصادية والعمرانية في المجتمع العصري ، وهكذا انتقل الأدب من الصور الهزيلة في قصص « عبدالله النديم » ، مثلاً إلى الصور الفنية الرفيعة في قصة « المستضعفين في الأرض » للدكتور « طه حسين » ، ومن الصور البسيطة « لمحمد المويلحي » ، في « حديث عيسى بن هشام » ، إلى الألواح النابضة في « يوميات نائب في الأرياف » ، « لتوفيق الحكيم » ، ومن نقداً « حافظ إبراهيم » ، الوعظية في « ليالي سطيج » ،

إلى المنحى العصرى فى قصص « يحكى أن . . . » ، « لمحمود
طاهر لاشين » .

١٩

ويجمل بنا أن نشير إلى أن اللغة التى يكتب بها الأدب
الحديث هى العربية الفصحى ، وقد أخفقت كل المحاولات التى
أريد بها تسويد اللهجات العامية فى البلاد العربية ، وجعلها لغة
كتابة كما هى لغة تخاطب وحديث . هذا مع أن اللهجات العامية
أسهمت فى التعبير الأدبى فى الأغاني والأناشيد والأزجال والحوار
القصصى والمسرحيات المحلية ، ونبغ فى أدب اللغة العامية أدباء
مثل الزجال « يرم التونسي » ، والشاعر « أحمد رامى » ، إذ قدموا
إفتاجا فيه حرارة وحيوية ، وفيه سمو فنى وفيه استلهام من البيئة
الشعبية ، واستجابة لما فيها من مشاعر وأحاسيس . ولكن هذا
الأدب العامى يقتصر الآن على المسرحيات المحلية ، والتثيليات
السينمائية والإذاعية وما إليها من أغنيات وأناشيد ، وكاد يمحى
من حوار القصص المكتوب بالفصحى . ولعل انحصار الأدب
العامى فى هذا النطاق مرده إلى أن هذا الأدب لم يستطع أن تظهر
فيه عبقرية بيانية تفرض نفسها لتزاحم بيان الأدب الفصيح .
وتكاد الدلائل كلها تجمع على أن المستقبل للفصحى ، وأن الفرص

التي أُنِيحت من قبل لإحياء اللهجات العامية في نطاق ينفصح أو يضيق ، تقل الآن وتترايل بسبب انتشار التعليم والصحافة والإذاعة ودعم وسائل الاتصال بين البلاد العربية ، وهيمنة الوعي العام لتوحيد اللغة والحد من اختلاف اللهجات في الوطن العربي الكبير .

٢٠

وأما أدبنا الحديث في حاضره الذي يتوئب إلى الأمام بخطا فساح ، فإنه زاخر بموجات فكرية تمدها ضروب من الثقافات المتنوعة ، وهي تستند إلى تأييد ورعاية من سلطان الدولة بما تنشئ من هيئات ومجامع ، وما تنظم من جوائز ، وما تمهد من وسائل التفرغ والتشجيع والتقدير .

وإن هذه الموجات الفكرية لتستهدى بنظرات نقدية منهجية حديثة ، وتكاد البيئة الجامعية المتنورة في ذوقها الفني ومستواها الرفيع ، تستأثر بالنشاط في شتى فنون الأدب ، وتشيع فيها روح السمو والتجديد .

وفي وسعنا أن نتبين في هذا الأدب الحديث الذي نطالعه الآن صباح مساء اتجاهات واضحة ، وميولا قوية . منها محاولة تعميق النظرة إلى الحياة وإلى النظم الاجتماعية ، وتخليص هذه

النظرة من نطاق المحلية الواقعية المحدودة ، والنهوض بها إلى آفاق الروح الإنساني الشامل ، على أساس من فهم الغرائز البشرية الثابتة ، والمشكلات الاجتماعية الأصيلة ، وأثر ذلك كله في السلوك العام حين تتلاطم الغرائز ، وتتعاكس تيارات النفوس ، ويتجلى الكفاح من أجل الحياة في صور متناقضة يلتبس فيها الخير بالشر .

ومن الاتجاهات والميول معالجة تصوير الآلام التي يعانيها المجتمع ، وتمثيل نضاله لتسكيل نفسه .

ومنها المشاركة في الدعوة إلى الأهداف العقلية والاجتماعية الرشيدة ، وهي التي تمثل وجدان الشعوب . وعلى رأسها دعوة الحرية ، والوحدة الإنسانية ، والسلام العالمي .

ومنها العمل على أن يكون الأدب وسيلة من وسائل التربية الاجتماعية للفرد والتوجيه العام للجماعة ، وذلك بتوسيع الخبرة بالحياة ، وإضافة تجربة إلى سلسلة التجارب ، والتبصير بحقيقة المشاعر والتصرفات من طريق التحليل النفسي العميق لمختلف ألوان السلوك .

وثمة منارتان يستضيء بهما الأدب العربي الحديث في سيره إلى الأمام :

المنارة الأولى : الحرص على الطابع الشرقى ، والاحتفاظ
بالروح العربى ، مهما يكن من استمداد الغذاء والنماء من شتى
المصادر الأدبية عند الأمم واللغات .

والمنارة الأخرى : العمل على أن يدخل الأدب العربى
ميدان العالمية ، ليكون له مكان مرموق فى قيادة الركب الإنسانى
تحت راية الفكر .

عائشة التيمورية

شاعرة الحب والألم ورائدة الأدب
النسوي في القرن التاسع عشر .
١٨٤٠ — ١٩٠٢ م

- مكانة الشاعرة عند معاصريها .
- إنتاجها الأدبي .
- كيف عرفتھا ؟ .
- حياتھا .
- شعرھا .
- رأي في غزلھا .
- بين « عائشة التيمورية » و « رابعة العدوية » .

مكانة الشاعرة عند معاصريها

لم يظفر اسم نسوى من الجاه وشيوع الذكر فى عالم الأدب خلال القرن التاسع عشر وما استقبلتا من القرن العشرين ، بمثل ما ظفر به اسم السيدة « عائشة التيمورية » ، بل إن الأدب العربى على مدى عصوره لا يكاد يسجل للشواعر فيه من دواوين الشعر إلا ما كان من ديوان « الخنساء » الشاعرة المخضمة التى عاشت فى العصر الجاهلى وأدركت صدر الإسلام ، ومن ثم كان ظهور ديوان باسم « عائشة تيمور » حدثاً له دويه وله صداه فى الحياة الأدبية ، وفجر النهضة يومئذ ولید .

حقاً ، لم يفت ذلك معاصريها من أهل الأدب وحملة الأقلام ، فهذا الأستاذ الأديب « سليم بك رحى » ، يقول فى الحديث عن ديوان التيمورية إبان ظهوره فى أعقاب القرن التاسع عشر :

« إن من تقدم من النساء أقل فضلاً ممن يظهرون فى هذا

الزمان ، فإن وجودهن بين أحياء العرب ، أو قربهن من عصورهم ، ساعدهن على قوة الملكة ، وانطلاق لسان البيان . فأما الآن وقد ضرب الجمل بجرانه ، وقوض من العلم أعالي بنيانه ، فمن تظهر بتجديد تلك المعاهد تستحق المقام الأول في الفخر ، وتغفر بحسنات وجودها سيئات العصر ، مثل صاحبة هذا الديوان
بل إن ذلك ما دعا السكاتبة النابغة د مى ، بعد تألق النهضة ، وقد انصرم ربع قرن على ظهور الديوان ، أن تكتب عنه وعن صاحبه ، فتقول :

« إن اسم التيمورية اسم شجى يحيا بزفراته الحارة المنغومة ، زفرات تناقلتها الأصداء ، يوم لم يكن للمرأة صوت يسمع ، فرسمت من الذاتية النسائية خطأ جميلاً حين كانت صورة المرأة سديماً محجوباً وراء جدران المنازل وتسكن الاستئثار . »

« وإذا قدر للمرأة المصرية أن تلج هذا الباب وتمعن في المسير كان مرجع الفضل إلى التيمورية التي نشرت أول علم في الجادة غير المطروقة ، وبكرت في إرسال الزفرة الأولى حيث كانت تسكن الزفرات . ويوم ينمو الأدب النسائي في بلادنا ، فيجىء حافلاً بحياة فنية غنية ، ستظل أناشيد « عائشة » ، تلك الأناشيد الساذجة لذينة محبوبة . كترنيمة المهد القديمة التي هممت لنا بها أمهاتنا شجية مطالبة كشدو القصب القائل :

« إن وراء المشاغل يظل القلب البشرى مثقلا بحنين وظلما
لا يعرفان النفاذ... »

٢

إنتاجها الأدبي

لقد أتت السيدة عائشة تيمور ، أن تدرس وتستكمل حظها
من العلم والأدب ، دون أن تلتحق بمعهد خارج المنزل ، حتى أتقنت
اللغات الثلاث : العربية ، والفارسية ، والتركية . ونظمت في هذه
اللغات جميعا ما جادت به قريحتها من معان وخطرات في شتى
الموضوعات . ولم تسكن براعتها الفنية مقصورة على الشعر ، فقد
أسهمت في صناعة الترسل ، وكانت لها أعمال قصصية ومقالات
أدبية واجتماعية ذات بال .

إلا أن هذه السيدة التي استطاعت أن تشق أطباق الظلام ، في
عصر الجهالة والحجاب ، بما اقتبست من نور المعرفة ، لم تدعها
ملايسات الدهر تفرغ لإنتاجها لكي تقدمه إلى جمهور القراء ،
فحاصرتها أحداث صعب ، وتوالت عليها فجائع هدت منها السكبان ،
وأورثتها اليأس والقنوط . ولولا أن ولدها ألح عليها — وقد
جاوزت عصر الكهولة — أن تجمع له ما نظمت من شعر ،

وما كتبت من نثر ، لما أبقت لنا الأيام على شيء من آثار تلك الأدبية
الرائدة التي هي طليعة الأدب النسوي في العصر الحديث .

ولستمع إلى ما قالت له لولدها «محمود توفيق» أحد رجال القضاء
لذلك العهد :

« في استطاعتي أن أنظم الآن شيئاً من الشعر ، شكراً لله عز
وجل على ما وهبني من النعم ، أما أشعاري الماضية فقد أحرقتها ،
ولا أظن أن في مكتبتني منها إلا الشيء القليل ، بالعربية والتركية .
فأما شعري بالفارسية فقد كان في محفظة فقيدتي ، وقد أحرقت
محفظتها كما احترق قلبي عليها ، وإني أهدى إليك ما عندي من
الكتب والأوراق ، فأصنع بها ما شئت ، وإن رأيتها جديرة
بالطبع فاطبعها ... » .

وقد بر الولد بآثار والدته فأظهر منها في حياتها :

أولاً : ديوانها العربي المسمى «حلية الطراز» ، وقد طبع
غير مرة .

ثانياً : ديوانها الفارسي التركي ، المسمى «شكوفة» ، وقد طبع
بمصر والأستانة وإيران .

ثالثاً : كتابها القصص الحكيم المسمى : «نتائج الأحوال» ، في
الاقوال والأفعال ، وقد طبع بمصر وتونس .

رابعاً : كتابها النقدى الاجتماعى المسمى : « مرآة التأمل فى الأمور » ، وقد طبع بمصر .

وتحدث « التيمورية » عن سبب تأليفها لكتابها القصصى ، فى المرحلة المتأخرة من حياتها ، فتقول :

« لما تلوت أحاديث من قضى من السلف ، ووردت منهل أخبارهم ورود من اعترف ثم اعترف ، وتأملت فى سير الأمم ، وتحققت أن السعد والنحس منوطان بالقدر منذ القدم ، وقد شاهدت والله بنفسى صدق هذا الخبر ، وكأبت لسوء حظى فى كهف العزلة ما هو أدهى وأمر . دعتنى الرأفة بكل مغبون لقي ما لقيت ، ودهى بما دهيت ، أن أبدع له أحداثاً تسليه عن أشجاناه عند تراحم الأفكار ، وتلبيه عن أحواله فى غربة الديار » .

وهكذا صقلت المحن تلك الأدبية المبكرة ، وأوحت إليها فى أعقاب السكولة أن تزاوِل — إلى جانب الشعر — لونا من القصص الحكى على تلك الأنماط التى كانت متعارفة فى تراث الأدب العربى ، أنماط الأسفار وأحاديث الأخباريين وما إليها من قصص شعبي .

على أن السيدة « عائشة تيمور » دجحت فوق ذلك مقالات وبحوثاً نشرت يومئذ فى بعض المجلات والصحف ، كمجلة « الآداب »

وصحيفة « المؤيد » ، وقد اشتهر من تلك المقالات مقال بعنوان :

« لا تصلح العائلات ، إلا بتربية البنات » .

وما كتبه « التيمورية » في النواحي الاجتماعية ، يكشف عن وعى سباق في الدعوة إلى تحرير المرأة ، وتمهيد الطريق لكي تسهم في الحياة العامة . وقد كانت « التيمورية » نفسها مثلاً حياً بما كان ينشده المصلحون في ذلك العهد من أمل في النهضة النسوية .

٣

كيف عرفتُها ؟

أما معرفتي بالسيدة « عائشة تيمور » فقد كان ذلك في أعقاب القرن الماضي ، وأنا يومئذ صبي تجاوزت الخامسة بقليل . كان أبي « أحمد تيمور » يصحبني إليها ، إلى عمتي ، التي يذكر هو لها فضل تشجيعه وتنمية نزوعه إلى القراءة والاطلاع . وما برحت أذكر وقفاتها عندى ، على سرير مرضى ، تعنى بأمرى وتواسينى فيما أجد من ضيق ، وما أقاسى من أوجاع . وليس يبرح مخيلتى طيفها المأنوس ، صبح العيد ، جالسة في حجرتها ، عليها مهابة ، وفي حركاتها نبل وترفع ، وفي حديثها حنو وتلطف ، تستقبلنا نحن ضيوفها الأحياء الصغار ، فتشغل أيدينا بما لذ من الحلوى ، وما راق .

من اللعب ، ثم تسمح على رؤوسنا في فرحة وتحنن ، داعية لنا بعافية .
موفورة وعمر طويل .

كان « التيمورية » الشاعرة قلب كبير ، ووجدان مرهف ،
يجب إليها الرفق بكل حي ، بكل شيء ، حتى إلى ألفيتها تعنى بسرب
من القطط استأثرت به ، وجعلت لكل قطة حشيتة خاصة بها ترقد
عليها ، وما أفتته منظرا أن كنت أرى « التيمورية » وقد أحاطت
نفسها بهذه الصويحبات التي تؤنسها بما لها من مواء وهرير ، ومن
مداعبات ومعايشت .

وإني لأتمثل الآن وأنا في شيخوختي الواهنة ، تلك اللبسات
الوادعة من أنامل عمتي الرقاق ، فأشعر من فوري ببهجة الطفولة
وصفائها يعارداني ، وكأنني بين يدي العمة أسمع وأرى .

لقد كانت قصائد « التيمورية » باكورة ما قرأت وما حفظت ،
فما أنسى يوم أقبل على أبي يدفع إلي ورقة خط فيها أبياتا ضبطها
بالمداد الأحمر ، وما لبث أن قال لي : « اقرأ » ، فأطعت ، متمهلا
في القراءة ، خشية العثار :

بيد العفاف أصون عز حجابي

وبعصتي أسمو على أترابي

وبفكرة وقادة وقريحة

نقادة قد كملت آدابي

ولقد نظمت الشعر شيمة معشر
قبلي ذوات الخدر والأحساب
ما قلت إلا فكاهة ناطق
يهوى بلاغة منطق وكتاب
فجملت مرآتي جبين دفاتري
وتخذت من نقش المداد خضابي
ما ضرتني أدبي وحسن تعلمي
إلا بكوني زهرة الأسباب
ما ساءني خدرى وعقد عصابتى
وطراز ثوبى واعتزاز رحابى
ما عاقنى رحبلى عن العليا ولا
سدد الخمار بلمتى وتقابى

وواصلت تلاوتى ، وعن يمينى أبى يرنو إلى ، وهو يصوب
الخطأ ، ويشرح الصعب ، ويفيض فى الإبانة والإفهام . وهكذا
تلقيت من ذلك الشعر أول قبسة من نور الفضيحة ، وأسبق نفحة
من مكارم الأخلاق .

وأذكر أننا — نحن الأشقاء الثلاثة : د إسماعيل ، ود محمد ،

و « محمود » — كنا في منصرفنا من المدرسة إلى البيت ، نتخذ من تلك القصيدة السامية في أهدافها ومراميها أنشودة الطريق ، نقسلي بالترنم بها في نشوة وإبتهاج .

على أنى لا أستطيع الادعاء بأنى فهمت فى صباى من تلك القصيدة التاريخية المشهورة ما تحمل من مغزى اجتماعى عميق له فى تاريخنا القريب صدى بعيد ، ذلك هو ثورة « التيمورية » فى قصيدتها تلك على الروح التقليدية التى كانت تحكم المجتمع المصرى فى هذه الحقبة ، فتجعل من المرأة رهينة بيت ، ودمية خدر ، لا مشاركة لها فى علم ولا أدب ولا ثقافة . لقد عبرت « التيمورية » فى نسج شعرى رقيق عن معارضة حارة لمن كانوا ينادون يومئذ بأن المرأة لم تخلق إلا للزينة ، وللقيام بمهمة الأمومة وما إليها من شئون منزلية ، وأن المرأة لا تستطيع أن تجمع بين الصون والفضيلة وبين ابتغاء الوسيلة لاكتساب المعرفة ، فهتفت « التيمورية » فى قصيدتها بأن الفتاة المتعلمة المتأدبة تدعم بالعلم والأدب شخصيتها ، وتستكمل بهما فضيلتها ، وبأن الصون والعفاف لا يعوقان الفتاة عما تطمح إليه من ثقافة ومن إسهام فى موكب الحضارة ، ولا ضير عليها أن تتخذ من الكتاب مرآتها ، ومن المداد خضابها .

وقد حرص أبى على أن يزودنا فى الحين بعد الحين بمختارات

من شعر أخته « التيمورية » ، في أشبات من الأغراض ، وعلى الرغم
بما كان لهذه المختارات من مكانة كريمة على ، وأثر بالغ في نفسى ،
فإنها كلها قد تضائلت وتخلفت يوم جاء أبى على « مرثية عمى »
لا بلتها « توحيدة » ، التى مانت فى زهرة العمر ، تلك المرثية التى
تقول فيها :

إن سال من غرب العيون بحور
فأدهر باغ والزمان غدير
جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفاء
إن الطبيب بطبه مغرور
فتنفست للحزن قائلة له :
عجل يبرئى ، حيث أنت خير
وارحم شبابى إن والدتى غدت
نكلى يشير لها الجوى وتشير
لما رأت يأس الطبيب وعجزه
قالت ، ودمع المقلتين غزير :
أما قد كل الطبيب وفاتنى
بما أومل فى الحياة نصير

لو جاء عراف اليمامة يبتغي
برثى لرد الطرف وهو حسير
أماه قد عز اللقاه ، وفي غد
سترين نعشى كالعروس يسير
صوتى جهاز العرس تذكارا فلى
قد كان منه إلى الزفاف سرور
بنقاء يا كبدي ولوعة مهجتي
قد زال صفو شأنه التكدير
قد كنت لا أرضى التباعد برهة
كيف التصبر والبعد دهور
قلبي ، وجفني ، واللسان ، وغالقي :
راض ، وباك ، شاكر ، وغفور

أطال أبي جلوسه إلى ، وهو يملئ على قصيدة الرثاء كاملة ،
حتى ملأت صفحتين اثنتين ، دون أن يضيق هو بالإملاء ، ودون
أن أجد في نفسي لذلك ملالة . وفي هذه المرة لم يلق أبي صعوبة في
الشرح والإيضاح ، فقد كانت أبيات القصيدة تناسب في وجداني
انسيا بآ ، فتبلغ مكان الشعور والتأثر ، كأنما يبعثها تيار خفي .
أكنت أفقه معاني هذه القصيدة حقاً ؟ لم أكن يومئذ لذلك
أهلاً ، ولكنني أحببت القصيدة ما وسعني أن أحب ، وزاد بها

ولوعى يوماً بعد يوم ، إذ أثارت بين جوانحي ، جوانح الصبي
الغريز ، مشاعر دفينّة ، فاتخذت منها لحناً شجياً ، تطيب به نفسي .
كلما أسمعته نفسي .

بهذا تعلمت من شعر « التيمورية » في مطلع أيامي أن الأثر
الفني الحق يقدر باستجابة القلوب له ، واستشفاف البصائر لياه ،
قبل أن يقدر برجحانه في موازين العقول والأذهان . قالفن .
الصادق هو الفن الذي يجد له الناس على اختلاف ألوانهم وتفاوت
مداركهم صدى في الأفتدة وتجاوباً في المشاعر .

لقد كتبت « التيمورية » قصيدتها هذه بذوب مهجتها التي أدماها
الجرح ، فكانت صورة الشعور الحزين ، ولحن الألم العميق ،
تردده الإنسانية المعذبة حين تمتحنها الأقدار بالخطوب الجسام .

٤

حياتها

ولدت السيدة « عائشة » في سنة ١٨٤٠ ، وتوفيت سنة ١٩٠٢ ،
وقد جاوزت الستين بقليل .

أما أبوها فهو « إسماعيل تيمور باشا » ، وقد كان من رجال
المناصب العليا في مصر بين حكم « محمد علي » وحكم « الخديو

إسماعيل ، . ولم يكن مجرد رجل إدارة وسياسة ، وإنما كان رجل علم وثقافة ، يجيد ست لغات : هي التركية والعربية والفارسية ، والفرنسية والإنجليزية والإيطالية . وفيما تولاه من المناصب رئاسة القلم الأفرنجي في الديوان ، وآخر ما وليه منصب الرئيس العام للديوان الخديوي ، وقد شاع عنه ولعه بالمطالعة ، وشغفه بمجالسة العلماء ، وحرصه على اقتناء الكتب النفيسة شراء وامتناساخا ، ويروى عنه أنه قال : « إني لأستحي أن يقع في يدي كتاب ولا أظالعه » . وقد أنشأ في حياته مكتبة خاصة له تفرقت بعد موته . فلم يبق منها إلا فهرس الأسماء . وبما ذهبت به الريح مع أوراقه كتاب عني بتأليفه ، وأودعه خلاصة مطالعته .

وأما والددة السيدة « عائشة » فحركسية الأصل . أرادت لابنتها نشأة كدشاة أترابها من فتيات القصور . تحسن فن التطريز ، إلى غيره مما يتصل بشئون البيوت السكريمة المطبوعة في هذا العهد بطابع المحافظة ، المضروب عليها حجاب .

وآتت الصبية وعائشة ، في فطرتها نزوعاً إلى التعلم ، وعزواها عن ممارسة الفنون النسوية المنزلية . ومن ثم قام بينها وبين والدتها صراع . فالصبية تريد الاستجابة لتلك الفطرة ، والوالدة تأبى على ابنتها أن تخرج على تقاليد الأسرة . وقد صورت لنا السيدة

«عائشة» ، فيما بعد ذلك الصراع تصويراً دقيقاً في قولها :

«فلما تنهياً العقل للترقى ، وبلغ الفهم درجة التلقى ، تقدمت إلى
ربة الحنان والعفاف ، وذخيرة المعرفة والإتحاف ، والدقى ،
تغمدها الله بالرحمة الغفران ، بأدوات النسيج والتطريز ، وصارت
تجد في تعليمي ، وتجتهد في تفهيمي ، وأنا لا أستطيع التلقى ، ولا
أقبل في حرّاف النساء الترقى ، وكنت أفر منها فرار الصيد من الشباك ،
وأتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك ، فأجد لصري
القلم في القرطاس أشهى نعمة ، وأتخيل أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى
نعمة ، وكنت أتمس من شوقي قطع القراطيس وصغار الأنامل ،
وأعتكف منفردة عن الأنامل ، وأقلد الكتاب في التحرير ،
لأتهج بسماع هذا الصري ، فتأتى والدتى وتعنفني بالتسكير ،
فلم أزد إلا نفوراً ، وعن صنعة التطريز إلا قصوراً ، فبادر والدى
تغمده الله بالغفران ثراه ، وقال لها : دعي هذه الطفيلة للقرطاس
والقلم ، واحذرى أن تسكرى من الكسر في قلب هذه الصغيرة ،
وما دامت ابنتنا ميالة بطبعها إلى المحابر والأوراق ، فلا تقفى في
سبيل ميلها ورغبتها ، وتعالى نتقاسم بنتينا ، نخذى دعت ، وأعطينى
«عائشة» . وإذا كان لى من «عائشة» كاتبة وشاعرة ، فسيكون ذلك
مجلبة الرحمة لى بعد مماتى .

لثت الصبية «عائشة» فيما بين السابعة من عمرها والثالثة عشرة
منسكة على الدرس ، يجلب لها والدها من الأساتذة المعاصرين من
يلقنونها العلوم واللغات .

على أن هذا الوالد العطوف ، على الرغم من سعة أفقه ، وفسحه
بجال التطور لا بنته ، لم يكن يستطيع التخلص من طابع المحافظة جملة .
ولم يكن يملك الثورة على التقاليد دفعة ، فإن السيدة «عائشة»
تقول :

« لم يكن أبى يأذن لى بالخروج إلى مجالس الرجال ، وتولى
بنفسه تعليمى ، واختصنى بساعتين من وقته ، فى كل ليلة ، أقرأ
فيهما عليه » .

وكان الأب أيضاً يشفق على ابنته من شعر الغزل فيما تقرأ من
كتب الأدب ، وتروى عنه ابنته قصة هذا الإشفاق ، فتقول :
« كان أبى كلما رأى فى يدى ديوان شعر ، قال لى : إنك إذا
أكثرت من مطالعة الشعر الغزلى ؛ فسيكون سبب زوال كل
دروسك من ذاكرتك » .

وبدت مخايل الشاعرية عند التيمورية ، وهى فى طراوة
الصبا ، وحداثة العمر ، وقد روت عن نفسها ما يصور تلك
اليقظة العاطفية فى قلب فتاة لم تتجاوز الثالثة عشرة .

قالت د عائشة ، :

د فى إحدى الليالى جاءتنى مريقتى بطاقة ورد ، وضعتها فى ،
مَشْرِ بَيْتِي ، وكانت الليلة ليلة البدر ، وفيما أنا أمتع ناظري بذلك
المنظر ، دعتنى أمى إليها ، فتركت بطاقة الورد فى أمانة البدر ، ثم
عدت من عند أمى ، فوجدت الورد مبدداً ، فأحزنتى ذلك كثيراً ،
ووضعت ناصيتى فى كفى ، وأخذت أفكر ، فجاءت قريحتى بيتين
من الشعر الفارسي

وهكذا كان الوحي الشعري الأول عند الصبية د عائشة ،
لونا من التأثير بمحاسن الطبيعة ، وانعطافاً رقيقاً لفتنة الأزهار
والرياحين .

وما كان لفتاة لها من السناء والسناء ما د لعائشة ، أن يطول
مكثها فى بيت أهلها لا تخطب ، وبخاصة فى ذلك العصر الذى كان
فيه التبكير بالزواج سنة المجتمع . وقد تم زواج عائشة ، لقريب
لها ، فصرفتها شوغل البيت الجديد عما هفت نفسها إليه من التفرغ
للأدب ، ورزقت من الذرية ما زادها شغلاً ، ولكن النزوع الأدبي
ظل كامناً بين جوانبها يبدو فى بعض المقاسبات والأحداث ،
متمثلاً فى مقطعات من الشعر تترنم بها فى هناء أو عزاء .

وتوالت عليها من بعد فجائع لم تسكن لها فى حسابان ، إذ قضى .

أبوها ، وقضى على أثره زوجها ، وكذلك ماتت والدتها ، فثبتت
« التيمورية » لهذه المفجائع تستلهم منها الحيوية والعزم ، وتستمد
القوة على كفاح الزمن . وأهل هذه المحن هي التي ألهمت قلبها حينئذ
إلى استئناف صلتها بالأدب ، واستكمال أدواتها فيه ، واقترن بذلك
أن شبت ابنتها « توحيدة » تنهض عنها بتدبير البيت وشواغله ،
فأقبلت « التيمورية » — وهي يومئذ على مقربة من تمام الأربعين —
تتهل من كتب الأدب ما تهل ، وجلست إلى سيدتين تعلمانها من
دقائق العلوم العربية ، وبخاصة ميزان الشعر ، ما لم تكن قد استوفت
دراسته . وإنه لأمر عجب ألا يسجل التاريخ الأدبي اسم السيدة
« فاطمة الأزهرية » والسيدة « ستيّة الطبلاوية » ، إلا بأنهما كانتا
أستاذتين لطليعة الأدب النسوى في العصر الحديث . ولم يتجل
أثر هاتين السيدتين المثقتين في عهد الجمالة والحجاب إلا بفضل
نبوغ تلميذتهما الشاعرة . وسيظل اسمهما حول اسم السيدة « عائشة
التيمورية » كالهالة حول الكوكب الألاق ، وفاء لما أسبغته
عليها من علم وعرفان .

استطاعت « التيمورية » أن تجعل من تصاريف القدر حيالها ،
على قسوتها ، مجالا خصبا للتعلم والإنتاج الأدبي ، فأفرغت همها في
إقبال على القراءة والاطلاع ، وفي مزاولة لنظم القصائد في مختلف

الموضوعات . ويمكن أن يقال إن تلك الفجائع التي حاقت بها كانت نقطة تحول في حياتها العامة . إذ بدأت بعدها مرحلة جديدة تسكونت فيها شخصيتها الأدبية واضحة المعالم والسمات .

ولم تكن تمنى في عهدها الجديد . حتى كانت رزيتها الكبرى بوفاة ابنتها العروس «توحيدة» ، وسنها نحو الثامنة عشرة . فجن جنون الشاعرة الخاتمة الفواجع التي بيّتها لها القدر فاجعة بعد فاجعة واستسلمت لأشجانها تكتوى بها ، ولبثت كذلك أعواماً أطلقت عليها «أعوام المناحسة» كما أطلقت على البيت الذي أقامت فيه يومئذ «بيت الحزن» وقد أصيبت الشاعرة في وقعة هذه الأحران يرمد كما يفقد البصر .

وفي خلال تلك الفترة العصبية ، كانت «التيمورية» قد ناوشها السخط على كل شيء ، فأهملت ما سلف من شعرها في اللغات العربية والفارسية والتركية ، وكادت تتردى في مهوى اليأس ، فلا تقوم لها قائمة من بعد .

ولكن الحياة أقوى من الأحداث ، وللزمن سحر في تطور الأحوال، فإن «التيمورية» ضمدت جراحها ، ما وسعها أن تضمدتها ، واستأنفت نشاطها الأدبي نظماً وتأليفاً .

شعرها

والشعر الذي خلقته « التيمورية » أجوده ما تمنحض عن تلك
المحن والفواجع . وحسبك منه المراثية التي تصف بها « التيمورية »
مصرع ابنتها العروس ، فقد كانت لحناً رائعاً تتمثل فيه الخفقات
الراجفة من قلوب الناقلين .

ومن أجود أشعارها تلك القصائد التي تشكو فيها الشاعرة
ما عانت من عينها الرمداء ، إذ قرحتها دموع الأسى على من فقدت
من الأعراء . وقد صورت « التيمورية » في تلك الرمديات مشاعرها
إزاء محنتها الأليمة بما غشى عينها من ماء ، جهد في علاجه نطس
ال أطباء وقتاً ليس بالقصير .

لنستمع إليها تقول من إحدى هذه الرمديات :

لقد أصبحت في حزن وأن*

وقلبي بين أنعاب وأين

وما أهدت صبا الأسفار يوماً

إلى عين غدت في أسر عين

تخالفت الأساة : بطول وعد
يعلاني ، ويأس فيه حينى
ومن فظ يهددنى جهارا
ببضعة المصوب فى اليدين
وعهدى بالمياه حياة نفسى
فالى قد ظمئت بماء عيني
وأبسط للظلام أكف بى
وأشقى لوعة بالظلمتين
ينافرنى السنا فأفر منه
كأن الضوء يطلبنى بدين
نعانى أبيض القرطاس لما
جفانى اليوم نور الأسودين
وقد جفت دواقي وهى تبكى
لما قد راعها من طول بينى
وأقلامي قد انشقت لأنى
حرمت مساسها بالإصبعين

وإننا إذ نقرأ شعر « التيمورية » فى الشكوى والآنين ، لنحس
قلوبها يتفجع ويتوجع ، ونجد تعبيرها حارا عن مشاعر إنسانية
عامة ، فليس هو مجرد بكاء أبكم ، ونحيب أجوف . ولا كنه ذوب

نفس شعرت فتألمت فعبرت تعبيراً عليه طلاوة وفيه رقة ، لا يكاد يبلغ الأسماع حتى ينفذ إلى أعماق القلوب .

والمرتبة الثانية من الجودة في ديوان « التيمورية » هي لتلك القصائد الغزلية ، وهي أوفر أبواب شعرها كثرة ، فإن قصائد الغزل تكاد تبلغ نصف ما نظمت « التيمورية » من شعر .

وإن غزل « التيمورية » ووصفها للصباية والوجد ، ليقطر سلاسة وعذوبة ، فيمس القلوب مسا رقيقا ، كأنه لمسات نسيم رشي .
تداعب الجدول الرقراق .

تقول في إحدى مقطعاتها :

حسنى الرفاق وصف للحي أشواق

وحدث الركب عن تسكاب آفاق

وبلغنى يا صبيبا إن جزت نحوم

أنى مقيم على عهد الهوى باق

كيف اضطبارى وأحشائى بها حرق

من جذوة مالها من حرها واق

قد جرعتنى صروف الدهر مرتغما

لواعجا كحميم أو كفساق

أسال حر الهوى قلبى وأبرزه

جفنى على يد آفاق وأحداق

هذا شواظ الهوى فى القلب ملتهبا

وفى التنفس من آثار إحراق

قدمت انا «التيمورية» هذه الرقائق الغزلية متاعا أدبيا للقلوب والأذواق ، ولسكن جرأة شاعرة شرقية فى القرن التاسع عشر ، بين ظلمات عصر الحجاب ، على أن تمارس القول فى الغزل ، كان جديراً أن يثير التساؤل بين النقاد والباحثين ، فهم لم يكتفوا بما أتيح لهم من ذلك المتاع الأدبى الذى جادت به قريحة الشاعرة ، وإنما طاب لهم أن يستبطنوا ما عسى أن يكون وراء ذلك الشعر من أسرار ، فعملوا يتساءلون : ما للسيدة « عائشة » والغزل ؟ وهى سلبية بيئة محافظة فى عصر محافظ تتكاتف فيه أئمة الأعراف والتقاليد ؟ كيف تعبر عن مشاعر نفس داخلها العشق ؟ كيف مضت تصور أشجان القلب ؟ كيف استباححت لنفسها أن تنال من تحب ؟ .

كان ممن تناول هذه الناحية كاتبة وكاتب ، كلاهما من الخبراء بأهواء النفوس ومنازع القلوب ، وكلاهما ممن مارسوا التعبير عما يعتلج بين الجوانح من الخواج والخطرات .

أما الكاتبة فهى النابغة « مى » ، وقد مالت إلى التشكيك فى أن تكون « التيمورية » ، قد قالت شعرها الغزلى كله للبحاكة والتقليد .

وفقا لما صرحت به الشاعرة ، إذ قالت : إنها « أغزلت في غير إنسان » .
والقصد تمرين اللسان ، . وعند « مى » أن شاعرتنا « في طبيعة نساء
العهد الجدد المتعرفات حقهن ، في حرية العاطفة ومشروعاتها ضمن
حدودها الطبيعية ، ليس في الشرق فقط ، بل في العالم المتمدن أجمع » .
ومضت « مى » تدال بالتمثيل من قصائد الشاعرة على أنها « صادقة
اللهجة في ذكر السعير الذى يضره الشوق » .

وأما السكاتب فهو الأديب الفيلسوف الدكتور « منصور فهمى »
إذ قال :

« أ يكون غزلها ضربا من ضروب الصلة ، بمن هو أهل لذلك
الغزل ، أو بمن هو حرى بهذا الحب من الرجال ؟ أ يكون هو الحرمان
من حرية الاختلاط بمن ترغب النفس في الاختلاط بهم من
الناس ، قد أدى إلى كبت العواطف ، وأدى الكبت إلى التنفيس
عنها وتصيلها في التخيل والشعر والقول المنعوم ؟ أ يكون هو
التسامى بالغرائز الدافعة الحبيسة ، فيعمل الاستعداد الفنى والأدبى
لتحويلها وتبخيرها إلى أدب وشعر ؟ » .

رأى فى غزلها

ولمى أحب أن أقف عند هذه المسألة — أعنى شعر «التيمورية»
الغزلى — ورقة مستأنية لا تخلو من روية ، اعلى مستطيع أن أبدى
الرأى فيها بقول له من الصواب نصيب .

أما أن «التيمورية» من ذوى العواطف المرفهة ، والمشاعر
الحساسة ، فهذا لا خلاف عليه ، وفى شعرها على ذلك برهان
فيه مقنع .

وأما أن قلبها قد هفا إلى حب ، وأن هذا الحب قد وجد الشخص
الذى يتمثل فيه ، أو بمعنى أوضح : أن «التيمورية» قد عشقت ،
وأنها فى هذا العشق لم توفق أو وفقت ، فاليقين فى هذا عند علام
الغيوب ، عند رب القلوب . وليس فى تاريخ «التيمورية» ولا فيما
تنوّل عنها من حديث قريب أو بعيد ، ما يلقى بصيصاً من ضوء ،
أو طرفاً من نبال .

بقى تقليب النظر فى شعرها الغزلى ، واستخباره عن جليلة
الأمير ، فهل عبرت «التيمورية» فى ذلك الشعر عن عاطفة دفاقة
ووجدان مشبوب ؟ أفى شعرها من شكوى الهوى ، ومن الوجد

والخمين ، ومن وصف ما يعتمل في الصدور المحترقة بحر الحب ،
ما يكشف عن خبيثة عاشق ، ويفصح عن روح هيان ؟

لقد قرأت ما نظمت « التيمورية » في الغزل ، وفي أذن مسماع
دقيق ، أعالج أن أستبين به خفقات قلب عاشق ، وعلى عيني منظار
مكبر ، أحاول أن أستجلي به ملامح وجه معشوق ، حتى كنت عيني
من طول النظر ، وعيت أذني من فرط السمع ، وحتى ضاق
بي المسامع الدقيق والمنظار المكبر ، فلم يخلص لي شيء يطمئن إليه
ضمير الباحث المنقب ، ويرضى به ذوق الناقد الأديب .

الحق أن من أراد أن يلتبس عند « التيمورية » تجارب عاشق
لو عته الصباية ، ونالت منه تباريح الجوى ، وأوعى شعره ما حاك في
صدره الحران ، في تعبير صادق ، وأداء حي ، فإنه لن يجد مبتغاه
على نحو ما يطمح إليه . وأما إن أراد أن يتوسم صورة مجددة لتلك
المعاني المطروقة والأوصاف المعهودة التي أفاض فيها شعراء العربية
على اختلاف مقاماتهم وأقدارهم منذ العصور الغابرة إلى وقتنا
الحاضر ، متغزلين في المرأة ، مشبهين بها ، متحدثين عما يلقون من
صدها ودلالها ، وما يعانون في هجرها ومطالها ، فإنه واجد من تلك
المعاني والأوصاف ملامح وحنينة تسير بها « التيمورية » أولئك
الشعراء السخريين في القديم والحديث .

تغزلت « التيمورية » ، لأنها شاعرة ، والشعر العربي أوله الغزل ،
ويكاد الشاعر يرادف المتغزل ، ونحن نعرف كيف كان الاستهلال
الغزلي يتصدر شتى القصائد في شتى الأغراض ، كأنه الفواتح
الموسيقية التي تتصدر فصول الملاحنات ، والأوبرات ، وبرامج الحفلات
والإذاعات . والغزل أكبر أبواب الشعر العربي جميعاً ، وهيمات
لشاعر ألا يتغزل ، وإن المعاني الغزلية بما تحمل من طابع الرقة
والحنين ، وبما تستوعب من نجوى القلوب ورفيف الأرواح ،
أبقى المعاني بالنسيج الشعري ، وأقربها متالاً منه . فالتغزل إذن كان
سلم الشاعر ، وإنه لسكذلك إلى يومنا الحاضر . وما الشعر في الحق
إلا غزل بأوسع ما في الكلمة من مدلول : غزل للمرأة ، غزل
للطبيعة ، غزل للمعاني ، غزل للأطياف والأشباح والظلال في مظاهر
الحياة وسرائر الوجود .

عرفت « التيمورية » ذلك كله بما قرأت من الشعر العربي ،
وبما سمعت من توجيه أساتذتها الذين أشرفوا على إعدادها الأدبي .
وصادفت آفاق المعاني الغزلية استجابة من نفسها الشاعرة ، فضت
على طريق الشعراء : بسننهم تقننى ، وبسننهم تهتدى ...

ماذا كان يمنع « التيمورية » أن تتغزل ، منافسة الشعراء فيها ؟
نظموا ؟ ومن الذى قال لها إن الشاعر لى يتغزل ، لا بد أن يحب ؟
ألم تقرأ « لجير » ، ولغير « جرير » من شعراء الغزل الرقيق ما يصيبى .

المرأة . وما كان ، جرير ، وكثير غيره من شعراء الغزل في العشاق ؟
ألم تقرأ المطالع الغزلية من شعر « مهيأ » ، وكلها تروءك وصفا
وتشوقك حنيننا . وما كان « مهيأ » إلا صدى في وصفه وحنينه
لشعر أستاذ « الرضى » . لم يصدر في شعره عن عين أرقها هواها ،
أو وجدان شب فيه التياح ؟

ومالنا تتمثل بهذا أو ذاك من الشعراء ، وأنت تكاد تحصى
الشعراء الغزليين الذين اكتبوا بنار الحب ، وعبروا عن عاطفة
صادقة وعشق أصيل . ولكن الشعراء الذين قالوا في الغزل صناعة
وتقليدا لا يكاد يحصيهم أحد !

الشعراء - إلا الأقلين الأندرين - كانوا يتغزلون في المرأة
ويشيدون بها ، ولعل أجودهم غزلا وأقدرهم على التأثير بشعرهم
الغزلي ، هم الذين كانوا يصنعون الغزل صنعا ، ويقولونه محاكاة
وتقليدا ، وعلى هذا النهج سارت « التيمورية » فنظمت ذلك الشعر
الغزلي الذي استغرق من ديوانها النصف إلا أقله .

ربما كان من العوامل التي ضللت النقاد في حديثهم عن الشعر
الغزلي عند « التيمورية » وجعلت الحقيقة تلتبس عليهم في فهم
كنهه ، أن « التيمورية » استعملت صيغة التذكير في وصف
المحبوب وفي خطابه ، فلم يروا حرجا أن يقولوا : إنها تتغزل في
رجل !

ولكن الحق أن استعمال بصيغة التذكير في الوصف والخطاب كان سنة الشعراء حين يتغزلون في النساء ، وما لإخائي بحاجة إلى سوق الأدلة على صحة تلك الدعوى ، فذلك هو الشعر العربي منذ تنوعت الألفان الشعرية ، في عصر « بنى العباس » ، إلى اليوم ، يتحدث فيه الشعراء عن حبايبهم من الغيد الحسان بصيغة التذكير في الوصف والخطاب .

كلنا تتغنى بقول الشاعر في القديم :

أفديه إن حفظ الهوى أوضيعة ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعه .

وكذلك تتغنى بقول « شوقي » في الحديث :

مضناك جفاه مرقده ورثاه ورحم عوده

وكلاهما حبيب يخاطب حبيبته ، وإن كان الخطاب لمذكر .

بل إن الأغاني العاطفية في اللهجة العامية تجري هذا الجرى في

الأغلب ، تخاطب فيها المحبوبة بصيغة التذكير ، ومن شاء المثل على

ذلك فإنه واجده فيما يحفظ من هذه الأغاني ، قرب بها العهد

أو بعد .

« فالتيمورية » حين استعملت صيغة التذكير في غزلها ، لم

تسكن تعنى أن تخاطب رجلاً ، ولأسنا نعول في تأييد هذه الدعوى

على مجرد الإشارة إلى سنة الشعراء وأصحاب الأغاني في ذلك قديماً

وحدثنا . وإنما نجد الدليل الخامس فيما احتوى شعر « التيمورية » ،
الغزلى من مضمون وصفى .

هذا قولها :

عذب الرضاب مهفوف يسى المتيم بالخور
من منجدى ، وجفونه منها المحب على خطر
قابله متنبها فاهيك من غصن خطر
ورأيه متبسا كالبدر لما أن سفر
اصدع بحسنك وافتخر تها بجيدك والطرر
فالشمس تنجل عندما تبدر ويستحي القمر

وذلك أيضا قولها :

سلوا جفنى الهامى أسقم أصابه
أم الوجد من دليلى ، أباح انصابه .
وميلوا على قلبى بلوم فإنه دعاه إلى نادى الهوى فأجابه .
فلى بين مكسورين : قلبى وجفنه
حياة عزيز أغلق الذل بابه
ولا تعذلوا آماق صب بفرحة
فعند امتلاء الكأس يبدى حبابه
هكذا وصفت « التيمورية » حبيبها : فى ريقه العذب ، وعينه

الخوراء ، وعوده اللدن ، وجيده الجبل ، وطرره الفاتنة ، وجفنه
المكسور . وما هذه الأوصاف إلا محاسن النساء التي هام بوصفها
الشعراء ، وما « التيمورية » فيها إلا شاعرة تقمصت شخصية رجل
يتغزل في المرأة ويناجيها ، ولكن بصيغة التذكير ، جرياً على العرف
الشعري المألوف .

ومقطع الرأى في شعر « التيمورية » الغزلى أنك لو عنونته
جميعاً بأنه ترانيم رجل عاشق يصف بها عشيقته ويناجيها ، لما شذ
بيت واحد من الشعر كله عن أن ينساق لذلك العنوان .

V

بين عائشة التيمورية ورابعة العدوية

ورثة جانب آخر من « ديوان التيمورية » يروعك بما فيه من
شعر صادق الوحي ، نابض الإلهام ، ذلك الجانب هو القصائد التي
تتصل بحكمة الحياة وفلسفة الكون ، وتنزع منزعاً دينياً في
الاستغاثة بالله والابتهال إليه ، وتحية رسوله صلوات الله عليه .

قالت « التيمورية » :

كم ذا نهىء بالآمال أنفسنا حتى كأن الفتى طول المدى باق
فقالدهر تبسم هن حقد بشائره فينا ويطوى نكالا ضمن إشفاق

فما فطر ترى الناس سكرى غفلة عظمت
أدارها الدهر واستغنى عن الساق
ما الحظ إلا امتلاك المرء غفته وما السعادة إلا حسن أخلاق
هذه الورقاء المتهوف ، التي تجلت رهافة أحاسيسها الشاعرية
منذ صباها ، صهرتها محنة تلو محنة ، فترفعت عن شوائب الحياة
ورظواهرها العابرة ، وشف روحها عن إيمان مكين ، وهفت نفسها
إلى أفق علوى مصفى ، فخلقت بأخيلاتها تتطلع إلى السماء وتشغف
بمناجاة الله ، فسمها من العشق الإلهى قيس ، وانفتح لها إلى التصوف
طريق ، حتى لكان شأنها فى عصرنا الحديث شأن « رابعة العدوية »
فى عصرها القديم ، بينهما تجانس وثيق ، وبينهما مشابه ملحوظة .
حقاً ، لم تكن حياة « عائشة التيمورية » على نحو حياة « رابعة
العدوية » ، ولم يكن لهذه من الملامسات ما كان لتلك ، بيد أنهما
التقتا فى أنوثة رقت مشاعرها حتى اتصلت بحب الله ، وكلتاها ناجت
الملا الأعلى مناجاة صوفية خالصة ، وكلتاها عبرت عن أشواقها
الروحانية فى نسج شعري هفواف .

دونك لوامع من أبياتها إلى الله :

أتبت لبابك العالى بنلى فإن لم تعف عن زلى فمن لى ؟
مقرا بالجنسية وامتثالى لأسر النفس فى عقدي وحلى
وومعترفاً بأوزار ثقال أقاد لحلمها طوعاً لجهملى
(٦)

أقر بزلتي من قبل كيلا تقر جوارحي بالذنب قبلي
أتيت ولي ذنوب ليس تحصى أقول لراحي : بالعفو كن لي
ومن قصائد التيمورية ، في هيامها الديني مطولتها التي سبقت
بها في عصرها الحديث « شوقي » صاحب « نهج البردة » في معارضة
القصيدة المعروفة « بالبردة » لصاحبها « البوصيري » ، في
مدح الرسول .

ولإليك بعض أبيات تلك القصيدة التيمورية في التوسل بالمقام
النبوي الكريم :

لما رددت عنائي عن غوايته وقلت يا نفس خلى باعث الندم
ولذت بالمصطفى رب الشفاعة إذ
يدعو المنادي فتحيا الناس من رجم
روحى الفداء ومن لي أن أكون له
هذا الفداء وموجودى كمنعدم
والعمر أفنت ثقال الوزر لمحتته وبددته صروف الدهر بالتهم
من لي بترب رحاب لو أفوز بها
كحلت عيننا أفاضت دمعها بدم
طابت ذكرى التيمورية ، من شاعرة ، مرت في هذه الدنيا ،
لتهدى إليها نفحات وجدان حي ، وقلب عطوف .
وسلام عليها ، في دار السلام !

شوقي والمسيح العربي

الشعر المسرحي في أدبنا العربي ، لا ينسب للأمير الشعراء « شوقي » أنه هو الذي رصعه بفرائد تألفت ومازالت تتألق ، ولا أحسب أنها ستفقد ألقها على الزمان . وشخصية « شوقي » في الحياة لا تقل طرافة عن شخصيته في الأدب ، بل لعل معالم تلك الشخصية البشرية هي التي غدت مواهبه الفنية بغذاء قوى ، وهي التي كان لها الأثر البعيد فيما قدم من روائع القصيد .

كان « شوقي » في قصر الإمارة مطوى الجوانح على خصائص ديمقراطية شعبية ، وكانت نظراته الأخلاقية وأفكاره الاجتماعية ونزعاته الوطنية تمثل أزكى ما يختلج به ضمير الرأي العربي العام من مشاعر ومثل ، وأبعد ما يتطلع إليه الوعي القومي من أهداف وأمانى . وفي الحق أن « شوقي » كان حاضرا بجسده على كرسيه في تلك المناصب السامية ، يتخذ لها رسومها وأوضاعها ، فأما أشواقه الروحية وحياته المعنوية فكانت خارج تلك الحدود والقيود ، تتنفس أنفاسها فيما يتغنى به من شعر ، وفيما يمرح فيه

من انطلاقات في قلب البيئات الشعبية العامة ، فمن شاء أن يشهده في جوهره الأصيل ، عاريا من زخرف المراسم ، وجده في ندوات ومشارب يختلف إليها جمهرة الناس هنالك يجلس محوطا بأخلاط من خلق الله ، فيهم ناشئة الأدب ، وفيهم من تتفاوت ثقافتهم بين الحضيض والأوج ، وفيهم من لا يحسن إلا أن يتظرف ويردد ما يشيع من نكات وأضاحيك ، وكان « شوقي » يحرص في مجالسه تلك على الاستماع ، وقلما يشترك في الحديث ، فما هو من المتحدثين الذين أوتوا ذلاقة اللسان وطلاقة البيان ، ولا أظن أنه ألقى يوما قصيدة له في حفل ، وإن زخرت المحافل بالمنشدين لقصائده يتخيرهم لها تخيرا ، بل يعدم إعدادا . ومن طرائفه أنه نظم قصيدة في رثاء « أمين الراجعي » وجدة في البحث عمن ينشدها في حفل التأبين ، فخافه التوفيق . وألقيت القصائد في الحفل دون المراتبة الشوقية ، فلم يكن من « شوقي » إلا أن دفع بقصيدته إلى صحيفة يومية لتنشرها ، وقد أضاف إليها هذين البيتين ، مخاطبا المرثي :

إِنْ يَفُتْ فِيكَ مِنْبَرُ الْأَمْسِ شَعْرَى

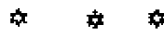
إِنَّ لِي الْمَنْبَرَ الَّذِي لَمْ يَزُولَا

جَلَّ عَنْ مَنْشِدِ سَوَى الدَّهْرِ

يَلْقِيهِ عَلَى الْغَابِرِينَ جَيْلًا فَجَيْلًا

وجلساء « شوقي » كانوا يعرفون منه أنه كثير أ ما ينسرح عنهم
بخواطره ، فإذا هو حاضر كغائب ، وكأنه في إغفائه . وبغته تستيقظ
يده لتمتد إلى علبة اللفاتف ، لا ليدخن منها لفاقة ، بل ليكتب على
ظهرها مامنتحه الوحي المفاجيء من أبيات .

ولم يكن « شوقي » فخم الشخص ، بارز الهيئة ، فكان إذا
سار وحده تخطته الأعين لاتباليه ، ومعظم أمسياته كان يقضيها
في مقعد أمامي من دور الخيالة « السينما » ، يشهد ما يظهر عليها من
روايات ، دون أن يعرفه أحد من الرواد ، إلا في الندرة .



وقد تملك « شوقي » ناصية لغتين : العربية والفرنسية ، وكان
في أدهما مكيئا ؛ فأما في العربية فقد تعلم السرى — كما يقول —
على كواكب من علماء « الأزهر » وأدبائه ، وأما في الفرنسية فقد
اكتسبها أثناء مقامه للدرس في ربوع « باريس » ، وأغصان
شبابه تميز . على أنه بدراسته وتنوع ثقافته وأخذه من كل من
التراث العربي والأوربي بنصيب ، اكتسب طابعاً خاصاً ، وذوقاً متميزاً
جعل منه شخصية أدبية مستقلة ، وإن كانت أصولها وجذورها
تستمد حيويتها من هنا ومن هنالك . وفي ذلك دليل على قوة تمثله

ومعظمه لما قرأ وما درس من أفانين الأدب، ما شرق منه وما غرب
في قديم أو حديث .

وقد لبث « شوقي » يتزود من الأدب ، منهموما لا يشبع ، فلم
يكن يمل الاطلاع أو الاستماع لما يتلى عليه من روائع الأدباء
والمفكرين . وفيما يؤثر عنه أن « كامل كيلاني » أنهى إليه عزمه
على نشر ديوان « ابن زيدون » ، و « شوقي » يومئذ في شيخوخته ،
قد قارب أن يرد متهل منيته ، فلم يصبر على الديوان حتى يطبع
كله ، ورغب إلى « كامل كيلاني » في أن يعجل إليه ما يطبع من
الديوان أولا فأولا ، فكان يبعث إليه بالكراسة تلو الكراسة
بعد الفراغ من طبعتها على الفور ، وهكذا تابع « شوقي » قراءة
ديوان رصيفه « ابن زيدون » قبل أن يجتمع شعره في كتاب مطبوع
تام . وظفر الديوان من « شوقي » بتلك القصيدة التي صدره بها ،
ومطامعها :

يا د ابن زيدون ، مرحبا قد أطلت التغيبا

وفي هذا البيت يتمثل حنين الشاعر إلى الشاعر ، ولقاء الأديب
للأديب ، بعد الغربة والمغيب .

• • •

وإذا كان « شوقي » قد احتفظ في قصائده ومطولاته بأوضاع

الشعر العربي التقليدي ، من وحدة الوزن ، ووحدة القافية ، ووحدة البيت ، فإن وحدة الموضوع أو وحدة الفكر في قصيده أوفى منها في قصيد من سبقه من قول الشعراء . فمن تجديده في الشعر العربي أن قصيدته كانت تخضع لهندسة ذهنية تستمد أصباغها وأضواءها من مخيلة متفنتة قادرة ، والموضوع في معظم قصائده متواصل الأطراف ، متماسك الأوصال ، متكامل الصور ، معانيه يأنس بعضها ببعض ، وأفكاره يتوضع فيها التركيز والتجسيد ، وكأن كل قصيدة ذات خطة مرسومة في دقة وإحكام .

* * *

وقد حلا لبعض النقاد أن يقرنوا « شوقي » بـ « المتنبي » ، ويبنهما من أبعاد الزمن ألف من السنين ، وليس « المتنبي » بحاجة إلى من يزكّيه أو من ينصفه ، فقد فسح له التاريخ الأدبي في رحابه وطبع أدبه بخاتم الخلود . ولكن « شوقي » في الحق لم يكن كـ « المتنبي » مقصور الحكمة والوصف على ما يعرض بخلال القصائد التي تضمنت تلك الأغراض التقليدية المحصورة في مدح أو غزل أو حماسة أو رثاء ، ولم يكن مثله محدود الصلة في عصره بولاية الحكم وأمراء الحروب ، يدور حول أحداثهم وشخصياتهم ورحبه وخياله ، وإنما كان « شوقي » في الجملة قلب وطنه الخافق ،

ولسان أمته الناطق ، إذ استجاب أيما استجابة لكل ما اعتلج في
حياتنا الوطنية والسياسية والاجتماعية من مشاعر وأشواق ورغاب .
وكان شعره يمتثل أصفى ما فى مجتمعنا العربى من وعى جديد ،
وأروع ما انبثقت عنه النهضة الحديثة من نزعات وانجاسات .
وهتفات . وهو القائل :

كان شعرى الغناء فى فرح الشرق وكان العزاء فى أحزانه .
لم يدع شوقى ، جانباً من جوانب القول فى الوصف والتعبير
والاستيحاء إلا كان له فيه مجال . هو الذى أشاد بالقواعد الأخلاقية .
النبيلة ، والمبادئ الاجتماعية الرشيدة ، فى أبيات مشرقة سارت
مسير الأمتال . وهو الذى بشر بالمذاهب العصرية فى تحرير
العقول وتطوير الحياة والأخذ بأسباب الرقى والنهوض . وهو
الذى استلهم حكمة التاريخ ومجد الحضارة فيما خلفه لنا الأسلاف .
من تراث فكرى وفنى وعمرائى ، وهو الذى تغنى بعظمة الشرق .
وشائج العروبة وهدى الدين ، وهو الذى نظر إلى مفاتن الطبيعة :
من نهر وجبل وروض ؛ نظرة فنان أصيل ، فوصفها بأسرارها
فى روعة وافتتان . وهو الذى عبر فى شعره كله عن فلسفة حيوية
واقعية عصرية ، تسير التطور ، وتدماج الحياة ، ولا تقنع بالتأمل
النظري المجرد ، الضارب فى أودية الأوهام .

وليس أدل على أن « شوقي » كان قوى الوعي بحاجة الأدب إلى التنمية والتطوير ، من أنه ألقى على نفسه ، وقد علت به السن ، تبعاً جسيمة ، هي أن يضع بذرة جديدة في حقل الشعر العربى ، ينقله به من نطاق القصائد والمقطعات وما إليها من الأوضاع التقليدية السائدة ، إلى ميدان رحيب ، وأفق عريض ، وما كان للشعر العربى بذلك عهد من قبل .

وجد « شوقي » مكان المسرحية فى الشعر العربى خالياً ، فأرسي فيه تلك الدعائم الوطيدة من مسرحياته : « مصرع كليوباترة » ، و « مجنون ليلى » ، و « قهين » ، و « عنترة » ، و « على بك الكبير » ... وإذا كان « الهمدانى » قد أنشأ فى الأدب العربى القديم فن « المقامات » وكان الأديب المجهول قد صنف « ألف ليلة وليلة » ، فإن « شوقي » هو الذى وضع قواعد الشعر المسرحى ، فى ذلك الأدب العربى ، وبذلك أثبت قدرة الشعر العربى على بناء المسرحية نظماً ، وكذلك أثبت استعداد رواد المسرح من جمهور النظارة للاستماع إلى شعر عربى صميم ، مع الاستمتاع بما يصور من مشاهد التمثيل .

ويبدو أن « شوقي » كان منذ نشأته يهفو إلى التأليف القصصى والمسرحى ، فقد ظهرت له أعمال تتصل بالناحية القصصية موضوعاً و مترجمة ، حتى إنه وهو فى « باريس » يدرس ، ألف

بالشعر العامى المعروف بـ « الزجل » مسرحيته وعلى بك الكبير،
التي حوّلها فيما بعد إلى مسرحية بالشعر الفصيح .

والمسرحيات الشوقية تستمد موضوعاتها من التاريخ ، ولكن
شاعرنا كان يجعل من مواقفها ومن أحداثها تبشيراً وتزكية للذرات
الوطنية والمبشأى التحررية والأفكار العصرية ، ولطالما تغنى
فيها بما للشعب العربى من مفاخر ، وما فيه من خصائص ،
وما أسهم به فى موكب الحضارة الإنسانية من جهود .

* * *

أما مسرحيات « شوقى » فى ميزان النقد الفنى ، فليس عا
يغض منها الإقرار بأن نصيب الشاعرية فيها أقوى من نصيب
الحرفية فى التأليف المسرحى ، ولعل مسرحية « مجنون ليلى » هى
الأولى نجاحاً وتوفيقاً ، وسر ذلك أن قصة « المجنون » — فى توقد
عواطفها وحيوية موضوعها — أمدته بما استجابت له شاعريته إلى غاية
بعيدة . وما عرف عن « شوقى » فى تأليفه لمسرحياته أنه كان يدير
الموضوع فى رأسه بصورة شاملة ، ويتمثل المواقف منفصلاً
بعضها عن بعض ، ويعكف على كل موقف فينظم ما يصوره به ،
ثم يجمع هذا الشتات ، ويربط بين أوصاله بما يتيسر له . وهذا
المنهج غير مأمون فى الوفاء بالوحدة والتسلسل فى البناء
المسرحى الفنى .

حافظ "وليالى سطح"

على رأس العقد الأول من القرن العشرين ، كنت أصحب
المرحوم والدى ، أحمد تيمور ، إلى المكتبة ، — دار الكتب
المصرية ، — فى الفينة بعد الفينة ، وكان هو دائب الاختلاف
إليها ، يجعلها مثابته المفضلة ، فيها يقضى أطيب ساعات يومه ،
وأمتعها لديه ، إما خاليا إلى كتاب فريد يطالعه ، وإما جالسا إلى
صديق أديب يؤانسه .

ومن بين من لقيت مع أبى فى بعض تلك الزورات ، شاعر
النيل " حافظ إبراهيم " ، واسمه يومئذ يملا الدنيا ويشغل الناس ،
كما قيل فى سلفه الشاعر " أبى الطيب " . إذ كانت الصحف تتناقل
قصائده فى الوطنية والقومية ، والأندية تعج بصوته منشدأ شعره
فى مناسبات الأحداث والذكريات العامة التى تعقد لها المجامع وتقام
الحفلات .

لقيته على سلم الدار ، ينفث دخان لفاقته . وكان حتما عليه
وعلى رواد الدار جميعا موظفين وزوارا ألا يشعلوا لفائف التبغ

في الأبهاء والقاعات ، فإذا اشتد الشغف بأحدهم أن يدخن ، وجب عليه أن يبرح الدار . ولا أقل من أن يبدأ إطلاق دخاناه عند رأس السلم العريض .

رأيت امرءا تتمددل حلقته على جسده ؛ كأنها غير مفصلة عليه . أشعث الشارب ، منتفح الوجه ، كليل البصر . وفي يده عصا غليظة . يتوكأ عليها ، فلما قدمني والدي إليه ، وذكر اسمه لي ، أنكرته . فيما بيني وبين نفسي ، وأحسست إحساس من خاب أمه . وارتسم في خاطري المثل السائر : « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه » .

وما لبث « حافظ » أن طوح بعقب اللقافة ، وصعد معنا إلى الطبة الأولى ، وقصدنا جميعا مكتب الشيخ « البيلاوى » ، وكان من أساطين الدار ؛ وهو شيخ اشتهر بأثنتين : حرارة الدعاة والتشكيت ، ومثانة العلم والدين . وكأنه يطبق الحكمة الشعبية : « ساعة لقلبك ، وساعة لربك ! » . رجل ظريف بحباح ، إذا أدار مع جلسائه مناقشة ، تحرى ألا يخلط قوله بخشونة البحث . وجدية الدرس ، حرصا منه على أن يرفه عنهم بالحديث المأنوس .

وكان « حافظ » بين الشيخ « البيلاوى » في حلاوة النكتة ، ومراودة السخرية ، وفي إشاعة جو المفاكمة ، وروح المطاوعة ، بما يرويه من نوادر ، وما يتفنن فيه من أضاحيك .

وما استقر بنا المجلس ؛ حتى انطلقا معا في هذا الميدان ؛
ففرسى رهان ، يصولان ويجولان . وإذا الحجره ترتج بمن فيها
من طرب ومراح ...

وقد عرفت د دار الكتب المصرية ، في مطلع هذا العصر ؛
من أمثال د حافظ إبراهيم ، أفذاذا ضمتهم جوانبها بوصفهم عاملين
فيها ، ولم يكن لهم في الواقع جسم عمل أو كبير غناء . وإنما كانت
جل صلتهم بها أن يترددوا عليها بانتظام أو دون انتظام . وكأنما
الدار في قوة وعيها وسلامة تقديرها ترحب بهؤلاء أحياء يتنفسون
أنفاسهم في جوها ، يقينا منها أن أمثالهم هم موضوعها الخالد على
وجه التاريخ ، وهم القيم الغالية الباقية في مستودع القرائح والأفهام
والأقلام ، سواء أكانوا أشخاصا يرددون أنفاس الحياة ، أم
كأنوا آثارا وذكريات علمية وأدبية في أوراق ومجلدات !

ويخيل إلى أن دحافظاء خشي أن تلتهي زيارتنا ؛ وليس له في
ذهني إلا تلك الصورة الهازلة لشاعر النيل ، فإني رأيت يطوى بساط
اللهو والمعابثة ، ويقبل على قائل في مباينة :

هل تعرف الفرنسية ؟

فنفيت معرفتي بها . وأنبأته بأن اللغة الأجنبية التي أتعلّمها في
المدرسة هي الإنجليزية لا غير ... فصاح في ضجّة :

كلام فارغ ... أية إنجليزية هذه ؟ اسمع يا بني : تعلم الفرنسية
فهي لغة الأدب الرفيع .

وراجه أبي يقول له :

الزمه أن يتعلم الفرنسية ... ليت له بمدرس خاص يلقنه
لماذا .

وانبرى يطنب في منازي الفرنسية، وما تحويه آدابها من نفائس
واستطرد إلى « فكتور هوجو » ، فأفاض في الكلام على شعره
ونشره جميعاً ، مستشهداً بمختارات يترجمها إلى العربية في إعجاب
بما حوت من معان .

وأخيراً ضرب كتفي ، وقال :

عليك بالفرنسية ، عليك بها لتقرأ « فكتور هوجو » ، فإن لم
تقرأ غيره ، فسكني به أديبا .

وبعد حين . جاءني أبي بنسخة من تعريب « حافظ إبراهيم »
لكتاب « البؤساء » أُلح درة في أدب « فكتور هوجو » .
وقال لي :

هذا كتاب صديقنا شاعر النيل الذي التقيت به في « دار
الكتب » .

وعكفت على الكتاب أقرؤه ، على علو طبقة في بلاغة الإنشاء ،
وفي سمعي يرن صوت « حافظ » وهو يحثني على أن أنعلم الفرنسية ،
لأنزود من أدب « فكتور هوجو » على الأقل !

ورقع في يدي من بعد ، كتاب « حافظ » القصص المسمى :
« ليالي سطيج » ، وهو من تأليفه فعمجت أشد العجب من التباين
الشاسع بين المسلك الفني في هذا الكتاب الذي ألفه وبين القصة
الفرنسية التي ترجمها ، ويبدو أن شاعر العربية لم يشأ أن يحاكي نمط
القصة الغربية في صيغتها الحديثة التي استمواه نموذجها في كتاب
« البؤساء » ، وآثر أن يستوحى قالب كتابه القصص من مآثورات
الأدب العربي ، وما تجددت به أنماطها في العصر الحديث .

فما لاريب فيه أن ظهور كتاب « حديث عيسى بن هشام »
للرحوم « محمد المويلحي » كان هو الذي بعثه على أن يأخذ هذا
الأخذ ، وينسج على هذا المنوال ، في « ليالي سطيج » . بيد أن
الفارق بينهما أن « المويلحي » كان في موضوعات كتابه أجنح إلى
تصوير مشكلات المجتمع وظواهر العادات والأعراف والتقاليد ،
وأن « حافظ » كان يقصر همه ، إلا أقله ، على المسائل القومية ،
والقضايا السياسية ، وما يتصل بها من محن وأرزاء كانت مصر
تصطليها على أيدي غاصبي حقوقها الأجانب والدخلاء ، فإذا كان

كتاب «المويلحي» اجتماعياً في الغالب ، فإن كتاب «حافظ» ، كان سياسياً وطنياً في الأغلب ، ولكن كلا منهما استطاع أن يصب أفكاره في قالب حوارى فيه ابتكار وابتداع ، لاهو إلى القصة الفنية المستحدثة ، ولا هو إلى المقامة البلاغية المأثورة ، ولكنه فن ينانى يتخذ من مناقلة الحديث سبيلاً إلى بسط الآراء ، وعرض الصور ، والتلميح إلى المقاصد البعيدة ، والرمز للخفايا العميقة ، بحيث تتوافر لذلك كله أهميات العناصر التي تجعل من العمل الكتابي نموذجاً أدبياً جميلاً ، فيه للقول غناء ، وللنفوس شفاء ، وللأذواق متاع .

ويتجلى افتتان «حافظ» بأدب «المويلحي» في أنه لا يقتصر على محاكاة أسلوبه ومنحاه ، بل يتعداه إلى الاقتباس منه في أثناء لياليه ، فهو يورد فصلاً كاملاً ، هو الفصل الذى يصف به «المويلحي» حديقة الحيوان قصرها ومتنزهها فى حديث «عيسى بن هشام» .

وكتاب «حافظ» مجموعة أحاديث يرويها أحد أبناء النيل ، ومن الغلو أن ندعوها قصصاً بالمعنى المفهوم من القصة ، ولعلها أولى بأن تسمى أحداثاً ومشاهدات وأوصافاً تستقل كل منها عن الأخرى أو تكاد ، وإن كانت ذات طابع واحد فى السرد والأسلوب .

وفي الكتاب بطلان : الأول الراوى نفسه ، والآخر «سطيح» ... أما الراوى فهو امرؤ يرى لأمته ما تعانيه في حياتها الاجتماعية والسياسية ، وينشد لها وسائل الإصلاح ، ولا يألوها نقداً ولو ما ، ولا يدخر عنها إرشاداً ونصحاً ... يصفه «حافظ» بقوله :

«أديب يائس ، وشاعر يائس ؛ دهمته الكوارث ، ودهمته الحوادث ؛ فلم يجد له عزماً ، ولم تصب منه حزمًا ... » . وهو يعنى نفسه بلا مرأه .

وأما «سطيح» فهو حكيم صالح ، أقامه «حافظ» حكماً عادلاً فيما يعرض عليه من قضايا العصر ومشكلاته ، وهكذا جعل الراوى يرتاد الأماكن ، ويلتقى الناس ، فيشاهد ويناقش ويتأمل وينقد ، مفضحاً عما يجيش في صدره من آمال وآلام ، فإذا نفّض جعبته لشيخ الحكمة «سطيح» سمع منه الرأى الصائب والقول الفصل .

وكما اختار «المويلحى» بطله الأول من بين شخصيات العرب الروائية ، وهو «عيسى بن هشام» بطل المقامات الهمدانية ، اختار «حافظ» بالمثل بطله الذى سمي به كتابه ... لقد عاد إلى عصر الجاهلية يفتش في دقائمه ، فاستخرج منها عرافاً يدعى «سطيحاً» هو إلى شخصيات الأساطير أقرب منه إلى الشخصيات الحقيقية ، واسمه

« ربيع الذئبي » ، وقد لقبوه « سطيجا » ، لأنه كان لهما دون عظم ، لا يستطيع وقوفا ولا مشيا ، ولكنه مستلق على ظهره أبدا ، فإن أرادوا نقله طووه على الحصير . ولم يكن له رأس ولا عنق ، بل كان وجهه في صدره ، وقد تكهن بفتح الحبشة لليمن ، وبظهور الإسلام ، وكان من المعتمدين ، يعد من سنيه مئينا

والنظرة الإجمالية في الكتاب ، ترينا أنه يجاذبنا الحديث في كثير مما كانت تتناوله الصحف من موضوعات العصر ومشكلاته وشخصياته ، فهو سجل يمثل لنا مظهر آ من حياة مصر في تلك الحقبة ، ويمثل لنا في الوقت نفسه جانبا من حياة « حافظ » ونفسيته ، فقد كتبه بعد خروجه من الجيش وعودته من السودان ، على أثر اتهامه بالاشتراك في الحركة الثورية التي يسميها « حادث الذخيرة » .

وقد عانى « حافظ » في ذلك الحين ما عانى من شظف العيش ، فاستبان في الكتاب ما استشعره من السخط على الحياة ، والنقمة من انحلال الأخلاق ، ورأيناه يلجأ إلى حمى الفضيلة والدين ، ويظهر في ثوب الواعظ الغيور . . .

وفي الكتاب موضوعات شتى ، فهو يتكلم على تحرير المرأة ، ويتصدى للدفاع عن « قاسم أمين » ، ثم يتحدث عن أهل « سورية » ،

ذاكر أمناقبهم، مشيداً بأفضالهم على العربية. ثم يأتي دور الامتيازات الأجنبية ، فيقول فيها :

« ما دام امتياز الأجانب ، فلغير المصرى عزة الجانب ، الرومى يطعن بمديته ، ويستظل بعلم دولته ، والمصرى يحمل القليل ، ويخضع خضوع الذليل ، » .

ويتحدث فى الصحافة ، فيذكر صحافة السوء بالسوء ، ويقول على لسان أحد الصحفيين شاكياً :

« فأنت اليوم بين أمرين : إما الفضيلة والنعمش ، وإما الرذيلة والعيش » .

ثم يذكر « شوقى » فينقده فى غير رحمة ، ثم يدافع عنه دفاع المستضعف ، ويترك الحكم أخيراً إلى « سطيح » فيقول :

« لو أنه منح من دقة المبانى ، ما منح من رقة المعانى ، فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته ، لكان شاعر كم غير مدافع ، وواحد كم غير منازع » .

ولا ينسى الجامعة المصرية ، فهو يحث المصريين ملحقاً متحمساً على بذل الأموال فى سبيل إنشائها . . . ولما كانت ثورة السودان سبباً فى خروجه من الجيش ، فقد وجدناه يخصصها بنحو الخمس من كتابه ، وفى حديثه عن الفتنة يسهب فى وصفها مندداً بالخونة ، منتقداً

سياسة الإنجليز أشد انتقاد ، ويعقب على هذا بحديث عن المعتمد البريطاني واللورد كرومر ، وما كان من أفاعيله في مصر ، وفي هذا المقام ينقل مقالا بأكمله للشيخ علي يوسف نشره في صحيفته «المؤيد» ، عنوانه «السياسة الضعيفة العنيفة» ومغزاه أن المحتلين اضطروا إلى استعمال العنف ليستروا وراءه ضعف سياستهم ، فالإنسان إذا ضعف في الحجة والرأي ، لجأ إلى القوة والعنف . وهو لا يغفل حادث «دنشواي» المعروف . وحافظ ، إذا تكلم في السياسة القومية كان في قوله سيطرة ، وفي رأيه صراحة ، لا يداجي ولا يحابي ، فهو الوطني الذي لا يطبق لوطنه هضما ولا ضيما .

وفي الكتاب صفحات لطاف في وصف الطبيعة والنيل والأسواق المصرية ، و«شيخة الزار» ، والراقصة ، وما إلى ذلك من مجالي الحياة وظواهر المجتمع .

يصف «شيخة الزار» بقوله :

«تدخل على المقصورات في القصور ، والمخدورات في الخدور ، فتفتق بطلمها طبل آذانهن ، وتثر بأسماء الجن نواعم أبدانهن ، وتعمى بدخان البخور نجل أعينهن ...»

وعلى الجملة ؛ فإن موضوعات الكتاب صدى لنفسية «حافظ» في جهارة ووضوح ، و«مرآة لعصره» وملايسات قومه في أمانة وصدق . أما إذا أردنا أن نوازن بين «ليالي سطيف» و«حديث عيسى بن

هشام ، في قول موجز ؛ فلما أن نقرر أن « المويلحي » حاول الدنو من القصة الفنية بما رسم من شخصيات حية ، وما صور من مشاهد شائقة . وأن « حافظا » كان معنياً ببسط الشكايات والشجون التي تعتمل في صدور الوطنيين الأحرار ، بما يجدونه في بلادهم وبين قومهم في ذلك العهد الذي شاع فيه الاضطهاد والاستبداد .

أما الكتابان ففي الطبقات العلى من الفصاحة والبلاغة .. تقرأ وهما فيخيل إليك أن كلام الكاتبين الكبيرين كان يختار ألفاظه ، ويؤلف بينها فقرة فقررة ؛ كما ينتقى الجوهري حبات الماس ، وينظمها في عقد ثمين . غير أن « المويلحي » كان يتبسط في أسلوب حوار . ويجدله جدلاً طبيعياً . فتأتى جملة نابضة بالحياة ، قريبة إلى الذوق العصري الشائع . في حين أن « حافظا » كان يتأنق ما وسعه التأنق ؛ لا يترخص من البداية إلى النهاية في كلمة أو عبارة ؛ فإذا كان « المويلحي » أخف روحاً وألطف مسلكاً ، فإن « حافظا » أمتن حيكاً وأدق سبكاً .

هذا ؛ ولما كانت « ليالي سطيج » قد ظهرت في وقت لم يكن للقصة فيه نصيب وافر ومقام يذكر ؛ فإننا نعترف ولحافظ ، بفضل المشاركة في السبق إلى اتخاذ النمط القصصي - على نحو ما - وسيلة للتعبير الأدبي الفني عن ملامح عصره ، ومشكلات مجتمعه .

وفي هذا من التجديد ما فيه .

طه حسين

فكر مستقل ، وروح خيرة ، وصيغة
فنان ... ذلك هو نابغة أدبنا العربي :
طه حسين .

أستاذنا طه حسين تتبلور فيه أركى نفحات النهضة العربية
الحديثة من دعوات واهتمامات في الوطنية والسياسة ، وفي العلم والدين ،
وفي الثقافة والأدب . فهو خلاصة مركزة لأعلام تلك النهضة :
مصطفى كامل ومحمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول ولطفى السيد
وأشباهم القليلين ، أولئك الذين أوفدوا نار الثورة وأضاءوا منار
الحرية وحملوا لواء التقدم والتطور . وهو بذلك أعرف المعارف
بين الشخصيات البارزة ، في عصرنا الحاضر . فما هو إذن بحاجة إلى
تعريف ، ومن يحاول ذلك فهو في الحق يحد من نطاقه غير المحدود ،
ويبغى أن يقرب إلى الأنظار هذا الأفق البعيد . ولكنني مع ذلك
يطيب لي أن أوجز تعريفه في بضعة عناصر :

فكر مستقل .

وروح خيرة .

وصبغة فنان .

وقد التأمت هذه العناصر في شخصية كنت فيها بذرة النبوغ
منذ البداية ، وظلت تؤتي ثمارها على الأيام وما تزال .

بالفكر المستقل استطاع « طه حسين » أن يبتث في حياتنا
العقلية والأدبية معنى الحرية بأقوى ما تدل عليه ، ويعت فينا نزع
التجديد بأكرم ما تشير إليه . فحين شرع في مطلع حياته يدرس
الأدب العربي كان أجلى مظهر له فيما درس أنه لم يدعن لما تواضع
عليه السايقون من آراء ومسايقه من أحكام ، ولم يستسلم لما تعارف
عليه معاصروه من طرائق البحث وأنماط التأليف . ومن ثم كان
أول كتاب أخرجه — منذ نصف قرن — هو في الواقع أول
كتاب في أدبنا العربي يدرس بيئة الأديب وشخصيته والمؤثرات
التي اعتمدت فيه ، على هذا النهج الذي تجلى في كتاب « ذكرى
أبي العلاء » ... ثم توالى بحوثه ودراساته من بعد ، في النقد
الأدبي ، وفي الإصلاح التعليمي ، وفي التوجيه الاجتماعي ، وفي
التثقيف بوجه عام ، فكانت في جملتها مثلاً عالياً لاستقلال الفكر ،
وجدة الرأي ، وتميز الملاحظ الخاصة في كل ما يعبر به ويدعو إليه .
وبالروح الخيرة مضى « طه حسين » يرسم لنفسه سلوكاً

إنسانياً رفيعاً ، لم يحدد عنه حين جرى قلبه بتصوير الحياة والأحياء ،
وبالتعبير عن الوجدان الاجتماعي في أصالة وصدق ، ولم يحدد عنه
كذلك حين تفرس بالمناصب : أستاذاً وعميداً جامعياً ووزيراً
ورجلاً من رجال الدولة ، له سلطاته ومشورته وتوجيهه في
جلائل الأعمال .

لقد كان « طه حسين » فيما قرىء له من قول ، وفيما أثر عنه
من عمل ، وفيما أسدى إلى الناس من سعى — إنساناً كبير القلب ،
سمح النفس ، رهيف الشعور ، فلا غرو أن تلتف حوله القلوب ،
وأن تألفه النفوس ، وأن يحوطه معاصروه بهالة ومهابة من
مشاعر الحب والإعزاز ، سواء في ذلك من تلقوا عنه ، ومن قرءوا
له ، ومن اتصلت أسبابهم بأسبابه ، ومن أفادوا منه على قرب أو
على بعد .

وأما صبغة الفنان في شخصية « طه حسين » فهي مبسمة يطبع
أعماله الأدبية جميعاً ، حتى ما كان منها خالصاً للبحث والدرس ،
بما يفتقر إلى التجرد للتأمل والتفكير والاستنتاج . وأعني بذلك
الصبغة فيه أنه لا يتناول موضوعاً ولا يرسم صورة إلا كان
فيما يتناول وما يرسم فناً أصيلاً يواتيه الخلق والابتكار ، ولا يكاد
يخطئه أو يخلفه . وبهذه الصبغة التي استيسرت له أصبح « طه حسين »

أغنى كتاب عصره عن أن يعلن اسمه بين يدي ما ينشر له . ذلك
بأن أسلوبه طعما ومذاقا ، به اللفظ والعبارة ، إنما هو أسلوب
أديب فذ ، ينفرد بخصائصه ، ولا تخفى ملاحظته ، هو أسلوب نابغة
أدبتنا العربي : « طه حسين » .

توفيق الحكيم

بدأت القصة العصرية في بستان الأدب العربي نبتة ضئيلة المظهر تحاول جهد مستطاعها أن تشرئب وأن تزدهى ... نبتة غرسها نفر من ناشئة المدرسة الحديثة ، تسامت نفوسهم إلى إمداد أدبنا المصري بذلك الفن الطارف من فنون البيان .

ولمن من الناس لمن كان يحوس خلال البستان ، فإذا لمح هذه النبتة في إهابها الغض ، لم يزد على أن يوليها ابتسامة استهزاء وسخر ... وقليل أولئك الذين كانوا ينظرون إلى تلك النبتة نظرة التفاؤل والاستبشار ، ويقدرّون لها في قابل الأيام مجد النماء والازدهار .

على أن نبتة القصة ما فتئت تتعاقب بأسباب البقاء ، مغالبة عثرات الطريق على ضعف واستحياء . حتى كان يوم شاهد فيه رواد البستان في أحبيص تلك النبتة المستضعفة زهرة فتية نضرة تليه على غنّتها الرطيب ، وتروع بمفاتنها الحسان ... ولم تكن زهرة البستان

إلا قصة « أهل الكهف » تحمل اسم « توفيق الحكيم » ،
طبع من هذا الكتاب بأدىء بدء مائة نسخة ، في معرض أنيق
من طبع جميل ، على ورق فاخر . وعرضت للبيع عشرات من هذه
المائة غالية المهر . . .

وتساءلت جمهرة من الناس ، وهم يطمون شفاهم في عجب :
« أهل الكهف » ... وهل هي إلا أسطورة أكل الدهر عليها
وشرب ؟ ففيم يبعث اليوم رفاتنا في هذا الكفن المزوق ، خدعة
للأعين ، وتزويرا على الأفهام ؟

و « توفيق الحكيم » ... لمن يكون هذا الاسم ؟ إنه ليس له في
وادي الأدب صوت ، ولم يسبق له في الصحف ذكر ، وما ذاع له
في معبد الفكر قربان !

أترى الرجل أراد بكتابه أن يزود أبهاء الضيافة وقاعات
الاستقبال في بيوت السراة بتحفة من تلك التحف التي تتفاثر على
المناضد ، تلمية للأنظار ، في فترات الانتظار ؟ !

ولكن الكتاب استن طريقه إلى طائفة من أعلام الأدب
الرفيع ، فراعته منه جدة في الموضوع ، وعمق في التفكير ، وقدرة
على معالجة التأليف القصصي ، في نطاق إنساني المنزع ، يسير نهج
الأدب الحلي في العالم المتحضر .

رما أسرع أن نهادى قادة الفكر هـذا الثبأ السعيد : مولد
ضوء جديد .

وتهافت القراء ينشدون الكتاب . فلم تسعفهم به السوق . . .
وطلمع على الناس عميد الأدب العربى « طه حسين » هاتفا
« بأهل الكهف » مشيداً بتلك الوثبة الكبرى فى ميدان القصة
الفنية ، فأثارت هتفة العميد تطلع القوم ، فتتابعوا ينفضون
الأسواق ، سائلين : أين الكتاب ؟

وكان صاحب « أهل الكهف » فى مرقبته ، على حذر واهتياج ،
طاوياً جناحه على النسخة الباقية من الكتاب ، ينظر إلى ذلك كله
بتينك العينين النفاذتين يسطع منهما البريق . . .

ولما اطمأن إلى الأمر كل الاطمئنان ، واستوثق لنفسه كل
الاستيثاق ، خرج من مرقبته يزجى الطبعة الثانية من كتابه إلى
معشر القراء ، فإذا هم يتخاطفون نسخه ، فلم يكن بد من أن يطبع
الكتاب طبعة ثالثة ، حتى ما بقى أحد من صفوة المثقفين إلا قرأ
« أهل الكهف » ، فعرف « توفيق الحكيم » .

وكذلك كان لخروج « أهل الكهف » روعة المفاجأة ، وإنها
لخصلة فى « توفيق الحكيم » ، أن يرتب ويدبر فى سر ، وأن يعمل
جاهداً فى صمت ، حتى إذا أوفى على الغاية من عمله تجلى به على الناس .

يشير فيهم التطالع والتشوف ، ويستهوئ نفوسهم في إقبال وإعجاب .
ليس صاحبنا كمثل ذلك الذي يطهو ألوان طعامه برأى من
الغادين والرائحين ، فهم يتشممون شذا الطعام حالا بعد حال ،
ويتعرفون مذاقه على مراتب نضجه طيبا وغير طيب ولكن
صاحبنا الألهى يريد نفسه على أن يخلو إلى قدور طعامه بنجوة من
أعين الناس ، فلا يظهر للبلأ إلا وقد أعد مائدته ناضجة الألوان ،
موفورة الحظ من سبك وحبك ، ومن تنسيق وتنسيق ...

تواردت كتب « الحكيم » يأخذ بعضها برقاب بعض ، ولسكنها
متباينة الأنواع ، متجددة السمات ، لسكل كتاب مذاق ، وعلى كل
كتاب طابع ، فلا تكرار ولا إعادة ، ومن ثم لا تزهد ولا إملال
كتب الرجل القصة على تخالف نفاقها : طويلة وقصيرة ، وعلى
تعدد نوعها : تمثيلية وغير تمثيلية . ودون المذكرات واليوميات ، ودبيج
الفصول في نقد الحياة والمجتمع ، وأرسل لوامعه الفلسفية في أسرار
النفس ، وحقائق الوجود ، فكان في كل ما جرى به قلبه مصطبغا
بصبغة وضاحية ، هي صبغة « الفكر » في سبره لأغوار الحياة ، وفي
توجيهه لتيار الرأي ، وفي تحليله لأحداث العيش ، وتعليقه
المتصريف الناس .

فيما بين أعوام قلال ، تجمع إنتاج « الحكيم » فكان ضخمًا ،

وهو زبدة قريحة ، وعصارة فن . . . ولا غرو أن يتيسر ذلك
لرجل شب شباهه موهوبا للأدب ، منهوما بالتزود من الثقافة .

احتوته « باريس » سنين من زهرة عمره ، فورد فيها مناهل
الفنون يكرع ، المسارح تشغل ليليه ، والمحافل الموسيقية تتجاذبه ،
وأشعة المعرفة في مدينة النور تضيء له الطريق أنى حل .

ولسكان هذه الحقبة من حياة « توفيق الحكيم » فترة التأهب
والاستعداد ، ومهلة التدبير والاختطاط ، وفاتحة التمرس بالكتابة
والتسجيل .

ولعل ما مزقه « الحكيم » في هاته الحقبة بما كتبه أكثر مما
أبقى عليه ، مستتريا بما صنع ، يائسا من يقرأ ، ضنينا بهذا الجهد
أن يذهب سدى ، غير بالغ بصاحبه ماربة . . .

ولكنه لم يكن يملك إلا أن يكتب وأن يسجل ، وإن محافى
غده ما فرغ منه في أمسه ، فقد كان محدواً على أن يكون من أصحاب
الأقلام وجماعة الكتاب بقوة خافية ماضية ، كأنها القضاء في خفائه
ومضائه .

كان مكتوباً على « الحكيم » أن يبلغ رسالة في الأدب الحديث ،
فسيق إلى أدائها غير مخير ، ولو لم يكن راضياً بأن يؤدها لفعل
على كره . .

ما كاد الحكيم ، يثوب من سفره : ويحل في وطنه بين
قومه ، حتى دأب على الكتابة والتأليف ، لا يعتاقه منصب من
المناصب ، ولا تستأى به مشغلة من مشاغل العيش ... فطوى مع
الأعوام مؤلفات مخطوطة ظلت في خدورها رهينة الأدرج
لا تنالها العيون ، فإذا خلا إليها في محسها لبث يناجيها ويسألها :
ترى هل يتاح لها أن تسفر ، وأن تخرج إلى العالم الفسيح ،
تتملاها الأنظار ؟

ولأنه ليكون في بعض أرجاء الريف ، يمارس عمله المرسوم
في حماية الأمن وتحقيق الجنايات ، فلا يحتويه بيته ، حتى يلتبس
الأنس بتلك الأوراق التي يترقرق فيها نبع روحه وفيض فنه ،
فيقلب الصحائف طائفة بعد طائفة ، يستمرى ما فيها من غذاء
ومتاع ، وهو عن كسب من النافذة يستنشئ أنسام العشيّة الرطاب ،
وما يزال ماضيا في قراءة ما كتب ، حتى يملسه النوم على تلك
الآهازيج ... فإذا استيقظت الشمس ، بعثت إليه رسولا يميظ عن
عينيه خدر النعاس ، فيصحو وأوراقه على صدره مستلقية ، يحيطها
بذراعيه ، فينفرج فنه عن ابتسامة استسلام ، ويستقبل يومه بما
يحمل إليه من أعباء المنصب وتكاليف الحياة ، فيغادر الدار متأبطا
حوافظ القضايا وأصاير التحقيق ، متوخيا دار النيابة ليعرض

أشتات الوجوه من خفراء وحجاب ، ومن أعيان وغير أعيان ،
ومن متهمين على اختلاف الأشكال والألوان .

وتتعاقب حوالية المشاهد ، فإذا بيده تهرب من نطاق الأفضية
والتحقيقات ، مختلسة وقتا بعد وقت ، لتسجل في قصاصات من
الورق صورا وخواطر ، يهدى إليها الفكر ، ويوحى بها الفن .

وحين يفرغ والحكيم ، من ساعات عمله ، يكون جيبه قد
امتأ بهذه القصاصات التي لا تمت إلى المحكمة بسبب ... ولكنها
على مر الأيام تتخلق عملا أدبيا هو مخطوط جديد ، حظه من
الحياة ذلك المحبس العتيق .

كنت في هذه المخطوطات ذخيرة من الحيوية واليقظة والحرية ،
فعر عليها أن يلزمها صاحبها جانب الأسر ، وأن ينصرف عنها بما
بين يديه من شئون حياته الراتبة ... فما هي إلا أن أزمعت هذه
المخطوطات أن تثار لنفسها بما تلقى ، وأن ترغب صاحبها على أن
يعرف لها حقها من التفرغ والتعهد ، وجمحت بها الثورة عليه ،
حتى أخضعت له لسلطانها كل إخضاع ، فعصفت في ثورتها بما له من
وظيفة حكومية وعمل رسمي .

وتمخضت ثورة ذلك التيار الفكرى العارم عن «توفيق الحكيم»
أديبا خالصا لأدبه ، خاليا لمخطوطاته ، ينشر منها ما ينشر ، ملقيا

بنفسه في ذلك العباب الزاخر من جمهور القراء .
ومن أعاجيب المواقفات أن مؤلفاته ومخطوطاته التي قطعت
بينه وبين عالم الوظيفة ، وأطاراته من منصات القضاء وكراسي
المناصب ، أبت أن تعيده موظفا بعد لأي إلا بين دفتي كتاب ،
فإذا هو أخيراً « مدير لدار الكتب » .

شكل ظاهرة علة .. مامن ذلك بد ... فأية علة يا ترى ساقها
القدر لتجلو عبقرية هذا الفنان وتبعثها على الإنتاج ؟

أما أنا — ورزقي على الله — فأفولها جهرة ... إن « توفيق
الحكيم » بمؤلفاته وما أقامت عليه من جاه الأدب ومجد الفكر ،
مدين كل الدين بهذا الإنتاج الوافر وذلك الصيت البعيد لفنائه من
أساطين الأفراح والليالي المسلاح ، في العهد الخابر ، تسمى
« الأسطى حميدة » .

وما أدري كيف كان التواصل بينها وبينه على وجه التحقيق ،
ولكني أعلم على يقين أنه لازمها في شرح صباه ، واستهواه من
غنى اللحن والإيقاع ، فتعشق الموسيقى ما وسعه أن يتعشق ، وآثر
صحبتها على كل صحبة .

وإني لأتمثله في ضامر العود ، ضئيل الشخص ، تهرق منه عينان
خفاذتان ملأهما التطلمع والشغف ، آخذاً بجلسه على مقربة من تلك
(٨)

السيدة الطروب، وقد أخلد إليها يستمع بمجامع قلبه ، وهي تشدو
في موكب من الأنعام .

ومنذ ذلك الحين تمكن حب الموسيقى من نفس « توفيق .
الحكيم » ، وملكت عليه النغمة أقطارليه ، فتسامى من أفق « الأسطى .
حميدة » ، إلى آفاق فنية رفيعة ، حتى أسلمه ذلك التصوف الموسيقى .
إلى روائع الأعلام من أمثال « بتهوفن » ، و « باخ » ، و « موزار » ، .
يبدل وقته قربانا لما تركوه من فن ، وتزودا بما أبدعوا من قدس .
النغم !

واكد اقرر في إيمان وثقة أن « الحكيم » لو لم يسعفه القلم
بصريره ، فينفس عن نزعته الفنية الأصيلة ، لظفرنا به كوكبا لامعا .
في أجواء الموسيقى والغناء .

أنت لا يعوزك أن تلبس خففة الموسيقى تسرى في آثار .
« الحكيم » مسرى الروح في الجسد ... وإله والقلم في يمينه يصرف .
به موضوعه وفق مشيئته ، لكأنه موسيقار يتولى تحديد الوقع ،
وتدبير اللحن ، وتنسيق الرنيم ، حتى يسود الموضوع توافق
والانسجام .

على أن موسيقى « الحكيم » ، في فنه الأدبي ليست تلك الموسيقى
العابرة التي تثير هزة الطروب العجول ، ولا يلبث أثرها أن يزول ..

هى موسيقى عميقة تبتعث أخفى ما فى النفس من كوامن العواطف
والنزعات ، وتحمل الروح إلى مجالات رحبية من التفكير الخصيب .

« الإسكندرية » داره ، فيها نشأ ، وعلى شاطئه بجرها درج ،
ومن « الإسكندرية » ورث خصال أهل الثغور : عزه واعتداد ،
وهمة للسعى ، وإقبال على الغنم والاكتساب . .

انظر إليه فى مشيته ، وقد بدا مشرئبا ، ناهض الصدر ، مترنخ
الأعطاف ، حثيث الخطوة ، كأبه أبدأ معجل يخشى فوات وقته
المقسوم لإنجاز عمله .

يده تقبض على عصاه ، لامتوكشا عليها ، ولسكنه يتخذها رمزا
لمظهر القوة فيها . . .

وعصاه « الحكيم » تقول لك :

إن ما يديه صاحبي من فتوة وقوة ، ليس إلا وسيلة يستريحها
خلة الخشية والتحوط والحدار . وقد طبعت نفس صاحبي على أن
يحذر ويتحوط ويخشى ، وقد نجلته مدينة البحر ، حيث الجو قلب ،
وحيث الحياة تحدو على مغامرة وتطير . . .

وإذا كانت المرأة نصف الإنسان على وجه عام ، فهمى نصف
« توفيق الحكيم » على وجه خاص . . . وبرهان ذلك حبه التقليدى
لها ، أعنى عداوته لرباها !

يؤمن الحكيم ، بقوة المرأة ، ويعرف لها سطوتها ، ومن ثم
يخشها ويحذرهما ويتحوط منها ، أو قل إنه يتطير بها ، اتقاء لما
لها من فتنة وهيمنة و ساطان !

تخطئ الخطأ كله إذا لم تفسر تهوين الحكيم ، من شأن المرأة
وإذراءه بها وتهجمه عليها بأن ذلك ليس إلا دفاعاً منه عن نفسه ،
وإلا تظاهر آ بالقوة والغلبة ، لكي يعالج بذلك حفظ التوازن بين
المرأة وبينه ، وبث الطمأنينة من جانبها في قلبه ، حتى يكون ذلك
سبيلاً إلى إخضاعها والظفر بها في يسر وأمان !

على أن ، شهرزاد ، في فطنتها الأصلية لا يفوتها سر ، توفيق
الحكيم ، ... فهي مزهوة بأن يكون ذلك الفنان العبقري مشغولاً
بمهاجمتها ، طارياً في إهابه شخصية العدو الخبيث !

العقائد وكما أراء

لم يكن عجبى شديداً حينما قرأت ما رواه بعض كتاب الصحافة عن أسرة «العقاد» من أنهم لما فزعوا إليه ، في ليلته الأخيرة ، وقد اشتدت به العلة ، ألفوا على وسادته كتابا كان يقرأ فيه ، موضوعه : «جيوولوجية أفريقيا» .

فإنى كثيراً ما صادفت «العقاد» في الضحوات ، جالسا على مقعد في هذه المكتبة أو تلك ، ويجواره ركام من أحدث ما ورد من الكتب ، فيطيب لي أن أقترح خلوته بها ، وتصفحه لها ، وألقى نظرة عليها ، فإذا هي خليط من أمهات المؤلفات في الأدب أو الفلسفة أو التاريخ ، وفي فروع دقيقة من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية ، وإذا هو يصطفى منها ، لا ما يتصل باختصاصه الأدبي والفكري وحده ، بل كل ما هو عميق دقيق في بحثه ، وما هو جديد موثوق به في موضوعه ، على تباين ضروب المعرفة وفنونها جميعاً . وما إن يظفر بطلبته منها ، حتى يمضى على الطريق بها ، متأبطاً إليها

سامق الهامة ، باسقى القامة ، عريض المنكبين ، متدفع اليدين ،
تلتمع عيناه حزما واعتزاماً ، ويقتلع خطاه في سيره اقتلاعا .

لقد لزمتم ، العقاد ، عادة المطالعة ، منذ عهد الحداثة ، حتى
أصبحت له ديدناً لا يملك منه خلاصاً . وعلى مر الأيام تأصل ذلك
فيه ، وتمكن منه ، حتى صارت حياته حياة مكتبية محضة ، وقد أبى
على نفسه أن يشوبها بما يخرجها عن تلك الوحدة ، فعاش فرداً
رهبانياً في صومعة القرائح والعقول ، وتيسر له بذلك أن يعتصر
زبدة الفكر من أصفى منابعه ، وأن يتزود بها ، منتفعاً بكل ما يقرأ
من جد وهزل ، ومن قديم وحديث ، وأن يكون في هذا المجال
إنسانى الروح ، عالمى النظرة ، وأن يشمل ذلك كله كما يشمل المرء
الغذاء ، فإذا هو دم يجرى فى الشرايين ليهب القوة والفتوة ،
فلا غرو أن تتجلى شخصيته كأنما هو موسوعة عربية ، أو معلمة
بشرية ، وأن تنسم مؤلفاته وفصوله بساتين الدرس والتحصين
وسعة الاطلاع ، وتعبر عن ارتباط متواصل بالثقافة المتطورة
المتجددة فى شتى الآفاق .

و العقاد ، الذى كان يمثل فى مفتتح نشاطه الأدبى والفكرى
منازع الثوار على القديم فى جميع مظاهره ، والدعاة إلى الثقافة العصرية
بكل معانيها ، كان مع ذلك من الفاهمين لعلوم العربية التى لا يعنى بها

إلا أهل الاختصاص والدارسين للتراث العربى أدبا وفكرا وتاريخا وحضارة ، فلم تكن ثورته على القديم إلا ثورة على التخلف والتوقف والجمود ، ولم تكن دعوته إلى الجديد إلا وصلا للماضى الأصيل بالحاضر المشهود ، وإمداداً له بما يعينه على السير فى ركب الحياة إلى أمام .

وإذا كان لكل كاتب عيب يتوضح فى آثاره ، فالعيب الجلى فى كتب العقاد أنها لا تصلح أن تزجى وقت القارىء قبيل النوم ، حين يتكىء على الوسائد . حتى إن كتابه «سارة» - وهو قصة فنية - يتعاصى على هذا الغرض ، لما فيه من تحليل عميق للنفس البشرية يثير اليقظة ويشرد عن العيون ترقيق المنام ، فإن انخدع قارىء بكتب العقاد ، فاتخذ أحدها للتسلى بالقراءة قبيل نومه ، لم يلبث أن يطيب له الأرق ، وأن يستبدل بمتعة الرقاد متعة الاستغراق فى عباب الفكر .

ولست أغلو فى القول بأن المرض الذى ألم د بالعقاد فى ريثق شبابه ، كان له الأثر العظيم فى تكوين حياته ، وإبراز طابعه ، وقد اضطره المرض أن يحيا حياة عزلة واعتكاف ، فانتفح المجال لميوله الأدبية ، كي تشبع نهمها إلى القراءة والدرس فى ذلك المعزل ، ومن

ثم أقبل «العقاد» يعب من فنون البيان ومناحي الثقافة ما ساغ له أن يعب .

وكان من أثر الاحتجاز في صومعة القراءة والدرس أن تمكنت في خصائص «العقاد» ملكة التأمل في الحقائق، والتعمق في الأفكار، فاكنت فصوله تلك الصبغة من أسلوب رحين، وتفكير دقيق، وإحاطة شاملة .

وهذا المرض كان من أثره أيضاً أن استقر في قلب «العقاد» حب الحياة ، والتشبث بها ، والكفاح في سبيلها . فإنه لما واتاه الظفر في عراك المرض ، ازداد تعلقاً بالحياة ، ورغبة في التمتع بأطايها ، فسكرم نفسه ونعمها ما وسعه التكريم والتنعيم . وكان من عقي ذلك الظفر أنه أورثه زهواً وعزة وثقة بالنفس ورهافة شعور بالكرامة ، وأذكى بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة والإصرار ، فتجلى في حياته وفي إنتاجه هذا اللون من القوة والصلابة والصراع .

لقد وصف «العقاد» في حياته بأنه الكاتب الجبار ، وعرف في مساجلاته بأنه عنيد عنيف . ولأنه لمطبوع حقاً على العنف والجبروت ، منذ نشأته ، فقد رسم لنفسه خطة في الحياة ، وأنفذها

كما رسمها ، متخطيا في عصاميته التعليمية والتثقيفية كل عقبة ، وكأنه ينظر إلى « المتنبى » في قوله :

أريد من زمي ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
وأنت لذلك ترى الصرامة والجد طابعا بارزا في أدب «العقاد»
فالفكرة عنده لها أصالتها من المنطق ، والجملة بنيان مرصوص ،
والكلمة في الموقع الذي يكفل لها الجلال والخطر . فأدبه صورة
صادقة أسيرته ، وهو فيما يكتب كأنما ينقل لنا مشاهد صحيحة من
حياته العقلية والنفسية في صومعة مكتبته التي أولاها كل تقديس ،
وجعلت منه شأبا وقورا في عصر الشباب ، وشيخا نشيطا حين
بلغ سن الأشياخ .

كان من جبروته في خاصة أمره ، ومن عنفه بنفسه في مجرى
حياته ، أنه لم يرض السير في طريق ممهود مألوف ، لا بوصفه
شاعرا وكاتبا ، ولا بوصفه ناقدا ومؤلفا ، ولا بوصفه مترجما
لأقطاب الأدب وقادة الفكر وعباقره الإصلاح . . . فهو بين
معاصره في كل أولئك طراز وحده ، مجدد بالدعوة يحمر بها ،
مجدد بالنقد يدأب فيه ، مجدد بالنماذج يقدمها ، وهو في جملة أدبه
صاحب مبادأة وخلق وابتداع .

كان شاعرا . . .

عبر عن عواطفه إزاء الأحداث التي كان لها رنينها وحداها في نفسه، ومع الشخصيات التي اتصل بها من قرب أو من بعد، فإن شئت أن تقيس شعره بأوضاع الشعر العربي، في متانة النسيج، وفصاحة اللفظ، وإحكام القافية، فإن تخرج من القياس بما يباعد بين «العقاد» وبين نخول الشعراء من قدامى ومحدثين. ولكنك بعد ذلك واجد في شعره وثبة تجسّد في أنماطه وموضوعاته وأغراضه. وعلى الرغم من الطابع التأملّي الفلسفي فيما نظم فإن في كثير من قصائده ومقطعاته نفحات شاعرية مرهفة، تنبض بخواج إنسانية رقيقة.

وكان كاتباً . . .

جرى قلبه في أدب ونقد، وفي سياسة واجتماع، فانفسح له مكان في الصدارة مع الكتاب الذين خرجوا بالمقالة العصرية من إطارها الإنشائي، وزخرفها اللفظي، ومعانيها المرددة، وأفكارها المحدودة، وسمّوا بها إلى مستوى رفيع من البيان، فيه يبرز الرأي، ويسود المنطق، وبه يتحقق الإقناع والتأثير في الأداء والتعبير. ولقد غاصم «العقاد» وخوصم، وجادل وجودل، وما أحسب أن اثنين يختصمان أو يجادلان في الشهادة «للعقاد» باقتدار قلبه على أن يصوغ مقاله، كما يسوى الفنان برقته تمثاله . . .

وكان باحثاً مؤلفاً ...

فلم يكن يقتنع في بحثه وتأليفه بجميع المعلومات، وسياقه الآراء
وعرض الأفكار ، ولم يكن يعول على النقل من المصادر
والأسانيد إلا حيث لا يحيط من الاستشهاد والتدليل ، ولكنه
كان يجعل من الموضوع الذي يتجرد لعرضه بناءً خاصاً به ، وفي
البناء تكمن ذخيرة ثقافية عامرة ، وتتجلى إحاطة بحوائب الموضوع
وما دار حوله من درس وتمحيص ، فشكل كتاب له لا يعدّ بسطاً
أو شرحاً ، أو تعليقا على مقررات سابقة ، بقدر ما يعدّ خلقاً فنياً
له جدته وله خصائصه في الشكل والموضوع على السواء .

وكان مترجماً مؤرخاً ...

وفي عبقرياته وغيرها من تراجمه للأعلام من قادة وأدباء ،
استطاع أن يسلك نهجا غير النهج الطبع المعمود ، من سرد مراحل
الحياة ، والكشف عن أهم الأحداث ، فهو حين يرسم الشخصية
التاريخية ، يكون في شأنها فكرة أساسية ، هي محور تلك الشخصية
ومدار سلوكها في الحياة ، وأثرها في البيئة . وهذا المحور يهتدى
إليه هو في بحثه ودرسه ، فيكشف عنه كما يكشف الغواص عن
الؤلؤة مكنونة في صدفتها ، أو كما يكشف الطبيب بتشخيصه عن علة
هي السر فيما يبدو من ظواهر وأعراض . وهو في استبطانه لسرائر

الشخصية وتقييم أعمالها لا يستسلم للأحكام التي يتناقلها التاريخ ، بل يتوسل إلى صحة التقدير وإصابة الحكم بتحليل دقيق في ضوء من الحقائق النفسية والاجتماعية للسلوك الإنساني والجماعي ، وملاحظة لمقتضيات البيئة وما يكتنفها من أحوال وملايسات .
والذين طالعوا كتابه « ابن الرومي » واستخلصوا حياته من شعره ، أدركوا أول وهلة يوم صدر أنهم إزاء محاولة جديدة في دراسة الشعراء ، على هذا النحو ، فقد علل عبقرية الشاعر ، وأوضح ما لها من خصائص ، وخرج منها بنتائج خليقة أن تبعث على النظر والتدبر .

وكذلك صنع « العقاد » حين عالج الترجمة للشاعر « أبي نواس » فلم يخذعه شعره عن بواطن شخصيته ، فوضعها تحت مجهر نفاذ ، وعرض سلوكه على نظريات لها وزنها في علم النفس ، فاستبان له بذلك حقائق في رسم الشخصية النواسية ، وتحليل مسلكه في العيش ، وتعليل ما تجلى فيها من طرافة أو شذوذ .

والحق أننا لو ألغينا كتابا عصرنا ينطبق عليه ما وصف به « ابن العميد » أديب العربية القديم « الجاحظ » ، لكان « العقاد » أديب العربية الحديث خير من ينطبق عليه ... فيما رأيت — ذلك الوصف الذي أوجزه « ابن العميد » في قوله :

« كتب الجاحظ تعلم العقل أولا ، والأدب ثانياً »

محمد فريد أبو حديد

في اسمه ما يحمل خصائص مسماه ، فإن اسم « أبي الحديد » يشعرك بالقوة والصرامة ، وإنه حقا لرجل صلب العقيدة ، شديد المراس ، يتجلى الوقار في سمته وشارته ، وتشيع الرزانة والاعتزان فيما يجرى به قلبه ، فإذا تحدث إلى صاحبه في مجلس ، أو خاطب مستمعيه في منتدى ، كان الجدل أظهر سماته ، وإن إلتاحه الضخم المنوع في الحكم والكيف ليدلك أوفى الدلالة على ما فيه من عزم وجهد ، وعلى ما أخذ به نفسه من مثابرة ومصابرة ، وعلى ما طبع عليه من روية وأناة .

ومما تميزت به شخصية « أبي الحديد » روح الاعتدال والتعقل والحكمة ، فأنت تكاد ترى فيه قاضيا أريبا حصيفا ، لا يركن إلى رأى إلا عن تفهم وثبت واقتناع ، فإذا عبر عن رأيه لم يجمع به عاطفة ، ولم يغفل في قول . ولعل فيما أكسبه هذه الخاصة أنه رجل تربية ، وما أشبه المرابي والقاضي في جملة من الخصائص التي لا بد منها لكي يؤدي كل منهما رسالته في مثابرة الأعلى ، ولعل دراسته الحقوقية

كذلك أمدت دراسته التربوية بما زاد هذه الخاصة في طبعه تأصلا
وازدهارا ، فكان سلطانها على حياته الأدبية ، إلى جانب حياته
العامة ، عميقا كل العمق ، ناصعا غاية النضوع .

وليس من ريب في أن تلك الخاصة هي التي نأت به عن أن
يكون له في المعارك القلبية بين الأدباء والنقاد مشاركة ملحوظة ،
فأكان « أبو حديد » من أولئك الذين يولعون بالمساجلات
والمصاولات حول قضايا الفكر والأدب ، وما عرفناه يفهم نفسه
بين أطراف الخصومة في هذه القضايا يمينة أو يسرة ، على حين أنه
في الطليعة من رواد المذاهب الفكرية والاتجاهات الأدبية في
عصرنا الحديث ، وأن له في هذه الريادة أثرا خصبيا يتمثل في
إنتاجه الموضوعي الفنى ، وفي تأييده النظرى للمبادئ النقدية التي
بها يؤمن ، وإلهاها يعتمد . وهذه مؤلفاته القصصية وغير القصصية
ترسم منهجه ، وتلك فصوله وأحاديثه تؤدي أمانة النقد على خير
ما يؤدها ناقد مكين .

إذا قرأت له مؤلفا قصصيا أدركت أول وهلة أنه كاتب لا يترك
قلبه طلقا على سجيته ، قائما منه بعفو الخاطر ، وفيض البديهة ،
ولكنه يختط لعمله الفنى خطة محكمة ، ويصور شخصياته بدقة
مقصودة ، ويجعل لسعيه غاية بعيدة ، وذلك لا يتسق إلا لأديب

أوتى الموهبة ، فلم تهتز أعطافه غروراً بها ، ووقفا عندها ، بل
آثرا اكتساب المعرفة الوافية الواعية بأنماط الأدب وطرائقه ،
وحسب نفسه على الدراسة المتعمقة لفن القصة فى أروع ما كتب منه
وما نقد به ، على تعاقب العصور ، فى شرق وغرب .

نلح هذا كله مطوياً ، يكشف عنه ما تطالعك به مؤلفاته ،
فإن مضيت تقرأ له بعض ما كتب من فصول وما ألقى من أحاديث ،
عرفت صراحة أى ناقد صحيح الرأى ، دقيق الملاحظة ، وأى أديب
واسع الاطلاع ، وثيق المعرفة ، ذلك الذى ياتى دروسا نقدية غالية
فى صورة فصول مرسله ، وأحاديث عابرة .

وقف فى د جمع اللغة العربية ، ينوب عنه فى تتويج إلتساج
كاتب — أنا به أعرف من سواى — فرأيناه يسترسل فى عرض
أدبى نقدى لتاريخ القصة وتطورها ، عرض يستخلص لك أدق
المعانى والأفكار ، فيصف الأديب بأنه د رائد البشرية ،
ويقول :

« كان الإنسان منذ القدم يتجه بفكره إلى جانبين من الوجود :
جانب الأشياء ، وجانب الحياة ، وكانت عدته فى هذا البحث .
المزدوج طوائف من رواد الإنسانية الذين كانوا يسرون فى الطبيعة .
بما وهبهم الخالق من ذكاء وإلهام ، فكان رواد البحث عن الأشياء .

هم العلماء ، وكان رواد البحث عن أسرار الحياة الإنسانية هم الأدباء
بالمعنى الأوسع الذى يشمل كل أصحاب الفكر والتعبير منذ بدأت
حياة العقل فى الإنسان . .

ويصور لك مكان القصة من الأدب الحديث ، فيقول :

« القصة فى صورتها الحالية ليست سوى نمو حديث فى الأدب
العالمى ، وإنما طارئة عليه بعد أن مهدت لها المطابع واستعدت لها
الشعوب منذ أصبحت مقدرة القراءة شائعة بين الناس . وليس
القصص الحديث شيئاً آخر سوى المظهر الأخير للرائد الإنسانى
الذى كان منذ القدم يتدسس فى الطبائع الإنسانية ويكشف الغطاء
عن أسرارها ، متصلاً بها ، مستجيباً لها ، مهتزاً بما يكشفه منها ،
متغنياً بما يلوح فيها من الجمال والسمو ، باعثاً روحه فى أنغامه
الشجية ليلاها القلوب ويجلو بها البصائر ، .

ويعرف ما يعنيه بالأدب ، موضحاً ما بين الأدب الإنسانى
والأدب القومى من صلة ، فيقول :

« إذا تكلمنا عن الأدب ، كان حديثنا دائماً عن الإنسانية ،
لأن الأدب لا يعرف حدود الدول ، ولسكننا مع ذلك نعرف
أننا جماعة من الإنسانية ، نحن نحس بأنفسنا ونعرف أننا وإن

كنا بشرا في محيط الإنسانية الجامع، فنحن أمة من البشر في محيطنا الأدبي، وإذا كان الأدباء من كل الألوان والأمم واللغات يطيعون وحي إلهامهم في خدمة الإنسانية المجردة، فإن لكل أمة أن تتفاخر بما أنتج أبنائها في تلك الخدمة الكبرى.

ويقف بعد سنوات نائبا عن المجمع في تقدير قصص نالت جوائزها، فيفرغ بجهد أو يكاد لبيان الضوابط التي تدرك بها أسرار البلاغة في فن القصة، فن هذه الضوابط: تصويرها للشخص تصويرا واضحا بحيث يكونون عالما صادقا نابضا بالحياة، ومنها: تصوير ما يحيط بهؤلاء الشخصيات بحيث يجعل عالمهم الذي يعيشون فيه يمثلنا بهم، حتى يحمل القارئ على أن يعيش معهم في ذلك العالم الواضح المليء، ومنها: أن تكون القصة مشبهة للحياة في دلالاتها دون تكلف أو تلفيق أو تظاهر، فكلما كانت الحركة أكثر مرونة كانت أقل ضجة وجلبة. ورأس الضوابط جميعاً: أن يكون للقصة موضوع فيه من المواقف الإنسانية ما يقف عنده العقل للتأمل، فامتياز الأديب في وقوفه عند الزوايا التي تتضح له فيها معاني الحياة الدقيقة، فإذا ما نقلها إلى القراء تجاوزوا معه.

والأستاذ أبو حديد، كاتب ناثر لعروبتة، غيور على قوميته، يطبع نزرعه الوطني الصميم أعماله جميعاً، بيد أنه استطاع أن

(٩)

يعصم نفسه في هذا التيار العاطفي الجارف من النهايت والتهور ،
فشورته وغيرته وليدة إيمان صادق ، وحمية باطنة ، لاتعبر عن
وجودها برفع الصوت وقرع الطبل ، ولكنها تستحيل طاقة
فكرية دافعة ، وقوة أدبية عارمة ، تستعين بأجداد الماضي وأوضاع
الحاضر وأمانى المستقبل ، لتعمل على إيقاظ الروح القرمى وإنعاشه ،
وتغنى في تزكية المثل والأهداف المرموقة لإحياء أمة حرة في
وطن كريم .

ومن مظاهر هذا النزوع عنده تأثره البالغ بالأدب الشعبي الذى .
هو صورة صادقة للنفس البشرية ، وتمثيل لما يحس به عامة الناس من
آلام وآمال ، ولأنه ليصف لنا الشاعر الشعبي صاحب الرابطة يوم .
استمع إليه وهو شاب بعد ، فيقول : « كان ينشد كأنه يحدث نفسه
بحلم يراه خلال سنة من النوم ، أو يناجى أطيافا تظهر له من عالم
مستور ، تهتف له بأمرار الإنسانية التى مازالت منذ القدم تملأ البشر
أملًا وتجعل لحياتهم مقصدا » . وهو يهذى إلى ذلك القصص الشعبي .
المنشد فريدة من فرائده ، هى قصة « الوعاء المرمرى » ، فيقول :
« لأنها تحية للشاعر الذى مازالت صورته ماثلة فى الذكرى ، لا يذكر
أحد أن أناشيده القوية الوثابة كانت تحرك قلوب طلاب الحرية نحو
عزات الغد الطالع من ضمير الغيب ، فهذه القصة هى بعض الأصدا .

الباقية في القلب من تلك الاناشيد البارعة التي كانت القلوب تتجارب لها ، عندما كانت الأيدي تسخو بقليلها ، والقلب يحود بكثيره ، عندما كانت الصور والمعاني أئمن وأكثر قوة من الحقائق والمادة ...

والأستاذ وأبو حديد، فوق ذلك كله من أولئك الذين هياتهم ملابسات النهضة الحديثة في مطلع هذا القرن ليكونوا رسل تجديد ودعائم تطوير للأدب العربي، واتجاه به إلى مستوى يساير به تطور الأدب العالمي ، فهم من الصفوة الذين بشروا بالأدب القصصي، ورأوا فيه الصيغة الجديدة للتعبير الفني عن الحياة والمجتمع، وأذكر أني قرأت له منذ نصف قرن أو نحوه قصة «مذكرات محمد» تلك التي كتبها وهو في زهرة عمره ، وقد ترادفت بعد ذلك مؤلفاته القصصية تكشف عن أستاذية متمكنة في هذا المضمار ، وتعمل على تأصيل ذلك الفن العصري المستحدث في أدب العروبة على أوضاعه السليمة .

وقد برزت معالم التجديد القصصي في مؤلفات «أبي حديد» في جانبين : أحدهما موضوعي ، والآخر شكلي .

ففي الجانب الموضوعي وقف في محارب التاريخ العربي يكتنه ما فيه من بطولة ، ويستلهم منه كرائم المعاني الإنسانية التي يأنس

فيها عصرنا الحاضر ما يظهر به نفسه ، ويقوى به طموحه ، ويبصره
بأسباب القوة والمنعة والعزة في معركة الحياة ، فليس القصص
التاريخي أو التاريخ القصصي عنده تمثيلاً محضاً للماضي ، ولا تحليلاً
بمجرد ما جرى فيه ، ولكنه وصل بين الماضي والحاضر ، وصل
يقوم على تعرف الأسباب الوثيقة بين الإنسان في أمسه البعيد
ويومه المشهود .

وأما تجديده في الجانب الشكلي ، فهو محاولته الرشيدة أن يخرج
بالشعر العربي من سجن القوافي الملتزمة والأوزان بوحداثتها المألوفة
إلى أفق الحرية والانطلاق ، وذلك لكي يستطيع الشاعر العربي
أن يصوغ الملاحم والتجليات ، وما هو بقادر على ذلك إذا لم يتحرر
من قيد التزام القافية وقيد الاستمساك بالوزن المتعارف المأثور ،
وما أحوج أدب العروبة إلى أن يكون حظه من الشعر الملحمي
والتشيلي غير منقوص .

وإذا جاز الحكم على أدب « أبي حديد » ، في كثير مما كتب بأنه
أقرب إلى الأدب الهادف ، فلاشك في أن الهدف فيه ليس كل
ما يحتويه ، ولاشك في أن فنه لم يقف عند الظواهر ، ولم يكتف
بالحدث العابر ، ولم يكن كذلك بالأدب الذي يشوبه الغرض
والاجتلاب ، فالحياة في قصصه تتحرك كما تراها العيون ، والأحداث

تتطور وفق السنن الطبيعية الجارية . والموضوعات التي تتدفق فيها تلك الحياة ، وتدور حولها هذه الأحداث ، وموضوعات لا تباين النفس البشرية فيما لها من غرائز ونزعات ، فلا ضسير على الفن القصصى من الهدف القومى أو الاجتماعى متى استطاع الكاتب أن يعلو فى موضوعيته على نطاق الخطابة والموعظة ، أو الدرس والتعليم ، ويخلص بعمله إلى أن يكون أدبا فنيا له بالحياة سبب وثيق ، وبينه وبين الإنسان نسب عريق .

وإن من المناصب لما يسعد بمن يتولونه ، إذ يصفون عليه من جاههم أضعاف ما يسدى إليهم من الجندوى . وكذلك الجوائز ، فرب جائزة تشرق هالتها بمن تهدى إليهم من الأكفاء ، ولا مرأ فى أن أكفاء جائزة الدولة التقديرية فى الأدب سواء منهم من سبقت إليهم بالأمس ، ومن سوف تلاحقهم فى الغد ، يأنسون بزمالة « أبى حديد » لهم فى هذه الجائزة الرقيقة ، ويجدون فى أنفسهم لذلك أجمل معانى الإعزاز والتكريم .

عزيز أباظة

جميل أن نلتقى الليلة فيما يشبه «سوق عكاظ» لتكريم شاعرنا العربي العربي «عزيز أباظة»، على أثر تكريم الدولة له بالجائزة التقديرية في الأدب. فإن التقاءنا على هذا النحو في مجتمعنا الأدبي هو رجع الصدى لذلك التكريم الرسمي، وهو في معناه إعراب عن الترحيب بهذا التقدير، وإحاطته بهالة من التأيد والتعزير.

على أن هذا التكريم المزدوج، أو التقدير الجامع، لشاعرنا «عزيز أباظة»، ليحمل جملة من الدلالات، أجمالها في كلمات.

فالاستاذ «عزيز أباظة» سليل أسرة اتصلت وشائجها بالأدب، وكان اتصالها به أقدس ما يرثه أخلافها عن أسلافها من الحسب. وفي خلال مائة السنة الماضية، كان من الأباطين من يغرم بحفظ التراث العربي ولم شتاته، ومن يأخذ بناصر النهضة التي تعمل على إحياء هذا التراث التليد العتيق، وقد عرفنا من كبارهم من كان يحتمل حياة الأدباء بأسنى الحفارات والرعايات. أجل، كان

أولئك الأباطيون يعرفون لشيوخ الأدب أقدارهم، ويمدون لناشئته
ظلالهم، وما زالوا كذلك حتى نجم من صميمهم من شرف بنبوغه
الأدب، ومن أنس بزمالكه الأدياء... فإذا كرمت الدولة اليوم
«عزيز أباطة»، وإذا نحن اجتمعنا الليلة في مناسبة هذا التكريم،
فإننا جميعا نرد بذلك بعض الفضل إلى أسرة سبقت إلى الفضل كله
في عهد كان الأدب فيها مغموط القدر، مغمور الذكر، وكان
الأدياء فيها لا يعرفون لهم في سوق الحياة الكريمة من نصيب.

ليس هذا وحده، كل ما يحمله تكريم الأستاذ «عزيز أباطة»
من الدلالات. فالحق أن تكريمه ينصب أكثر ما ينصب على تلك
الخطوة التي اختطها لأدبه، وصرف إليها معظم جهده، ووفق فيها
توفيقا أحسبه لم يتح لسواه. فنحن إذا نظرنا إلى مسرحياته،
وأذكر منها «قيس لبتى»، و«العباسة»، و«الناصر»، و«شجرة الدر»،
و«قافلة النور»، ألفيناها في مجموعها تستلهم أمجاد الحضارة العربية،
وأحداث تاريخها الجسام، وتتجه في روحها وفلسفتها وجهة
التعبير عن القومية العربية بما لها من أواصر تصل بين العرب في
كل مكان، وتزكى في نفوسهم ما لهم من شخصية مستقلة بقوامها
على مر الزمان. وبهذا مثل شاعر المسرحية الكبير في أعماله
الأدبية الرائعة، تلك البيئة العربية والشيمة العربية، تمثيلا يقوم

على التحليل النفسى والتصوير الفنى ، فكانت جلاء لصفحات من تاريخنا المشرق ، وهذا أيضاً سجل استجابته الواعية لاسمى ما اعتلج بين جوانح المجتمع العربى من مشاعر وأهداف . . . فإذا كرمت الدولة اليوم « عزيز أباطة » ، وإذا اجتمعنا الليلة فى مناسبة هذا التكريم ، فإتما نكرم فيما نكرم معنى الوفاء للقومية ، ومعنى البر بأجداد العروبة ، فى مسرحيات تجمع بين جودة الفن ، وروعة الأدب ، وأصالة التاريخ .

وثمة دلالة أخرى ، لعلمها أولى الدلالات بالتقديم ، تلك هى أن شاعرنا « عزيز أباطة » أجدر الناس بأن نلقبه بلقب « النابغة » فقد انبثق بين الشعراء كما تنبثق عين الماء جارية بالعذب الفرات . فاجأ معاصريه بشعره ، وقد هدف إلى الأربعين أو جاوزها بقليل ، فإذا هو شعر نفم جزل أصيل ، لا تعوز مراحل الدربة والتجريب ، وإذا هو فى ديباجة ترقى إلى عليا طبقات البلاغة العربية لفظاً وأسلوباً ، إلى ذوق عربى مصفى فى انتقاء المأفوس من الكلم ، والتشكيب عن المجفوف من التراكيب . وما أسرع أن لمع اسمه ، وسطع نجمه ، وسبق إلى الصف الأول من شعراء عصره ، متخطياً من كانوا يطالعون الناس بأشعارهم قبله بسنين . وما هى إلا أن أصبح له فى تأصيل الأدب المسرحى الشعرى باع مديد ، فلقد رعى نبته

القصة الشعرية التي وضع « شوقي » من قبله غراسها ، فزكت على يديه ، وازدهرت أي ازدهار ، وأخرج منها تلك النماذج الفنية الممتازة التي تدل على خبرة بمطالب التأليف المسرحي ، وتكشف عن بصارة ورهافة حس بما تنطوي عليه الأحداث من قيم ومثل إنسانية ، إلى جانب عرضها لمشكلات اجتماعية يتشابه فيها الأمس واليوم ، ويتصل فيها الماضي بالحاضر فإن نحن كررنا نابتغينا « عزيز أباطة » فإنما نكرم النبوغ الذي تميأ له ، والجهد الدائب الذي صبر نفسه عليه . والأمة التي تحتفي بنوابغها تعبر عن عرفانها لأعز ما تجود به الأيام على الأمم من عطايا وهبات .

وحسبنا أخيراً من تكريم الأستاذ « عزيز أباطة » أنه سَنَى لنا الالتقاء في هذا المهرجان الكبير . وما يدرينا لعله موعده مع القدر لمولد نابغة جديد بيننا ، ممن نسمع لهم أو يسمعون لنا ، كما كانت « سوق عكاظ » في عصر العربية الأولى : مَلْجَأٌ للقرائح والمليكات ، مَسْنِيَةٌ للشعر والشعراء .

خاتمة مرسوم

قبل عشر من السنين ، كنت في زورة «اللبنان» ، ألتبس عندها
راحة من السكد في شتاء مضى ، ونجوة من القيقظ في صيف حضر .

وطابت نفسي بما قضيت هنالك من فترة استجمام وأنس بالحياة
فتشوقت إلى أن أزور دمشق ، وأن أجدد العهد بمن ألفت فيها
من صحابة الأدب والفكر ؛ وأن أتعرف بمن لم أسعد بمعرفتهم بعد .
وكان في طليعة من هفت النفس إلى رؤيتهم يومئذ شاعرنا المتفرد
«خليل مردم» ولسان حاله يناجيه بقول شاعر مثله :

أجد لنا طيب المكان وحسنه

مني ؛ فتمنينا ؛ فكنت الأمانيا

هداني طريق إلى داره أحد الرفاق ؛ فلما أقبلت عليها اقتشبت
بما يسطع فيها من عطر شرقي أصيل ، وما يكسوها من طابع عربي
صميم . فإن هذه الدار لتمنح العين والروح متعة استشفاف الأطناف
المحببة من تلك الأجواء التي تحف بالخواطر والأذهان ، وتحف

بها إلى حيث تتمثل لنا ذكريات ماضينا العزيز .

ما وطئت قدماى عتبة الباب ، حتى صاغت سمعى أول وهلة
نغمة هفافة لطيفة ، إنها قرقرة ماء ، سرعان ما استبان لى مصدرها ،
فقد لاحت لعينى ، وأنا أجوز المدخل المسقوف ، مخايل خضرة
نضرة فى فناء يمشى فيه جدول ماء على استحياء .

كان الأصيل قد لم أذباله ، وحانت ساعة الغروب تحمل
بوادى عتمة العشى ، فتضئ على الدار من يدا من سكىنة وهدير .

حالت منظره الضيوف ، واستشعرت من فورى خشوعا رفيقا
يملا النفس من طمأنينة وصفاء ، خشوعا يشبه ما يستشعره المؤمن
حين يؤم بيتا من بيوت العبادة ، أو ما يستشعره الأديب المتذوق
حين تتأدى إليه روحانية بيت من أبيات الشعر .

بعد قليل تناهت إلينا خفقات خطو هين راتب ، وإذارب
الدار يهل علينا فى سمته الوقور ، وعلى بحياه ابتسامة وادعة ، وما
أسرع أن تباد لنا التحايا يعبر بها كلالنا لصاحبه عن شوق
أيما شوق .

ذلكم كان لقائى الأول المرحوم . خليل مردم ، وذلكم هو
آخر ما كان بيننا من لقاء . ولكأنى بالقدر المغيب قد دبر لى أن
ألقاه ذات يوم هذا اللقاء الفذ ، لكىما يزداد إحساسى بلوعة

الفجیعة فیہ یوم منعاہ ، والکیما تتوہج فی مخیلتی صورته کلبا .
خطر لی ذکراه ، إذ ینازعنی إلیہ ما أقرہ ذلک اللقاء الفذ فی
نفسی من ألفة بہ ومودة له وإعزاز .

علی أن التلاقی بالمشاهدة والعیان لیس ہو کل شیء فی علاقات .
الصدقة بین رفقة القرطاس والقلم ، فشمعة لقاء موصول ببنهم أعرق .
أثرآ فی تعریف بعضهم ببعض ، وفی توثیق تلك الأواصر بین
أرواحهم وما تناغت بہ خواطرهم علی صفحات الكتب ، وفی
التقرب بین أشخاصهم التي تتمثل فی مخیلاتهم علی القرب والبعد ،
ولعل الشخصية فی هذا العالم الخیالی الشامل الطلیق أصدق أنباء
وأجل خطراً وأطول بقاء علی الزمن الممدود .

حین لا قیت «خلیل مردم» فی تلك الجلسة التاریخیة ؛ أحسست
أن هذا الحیاً الهادیء الجیاش بالمشاعر البعیده الغور لم یکن غریبا .
عنی ؛ وأن تلك السمات التي ألحها فی حدیثه لیسست جدیدة علی .
بل إن ذلک الصوت الرصین الخافت الذی یتتمیز بہ أصحاب الشعور
المرهف والتفکیر الدقیق قد التقطته أذناى من قبل . فما کل أولئك
إلا معالم كانت تترسل إلی نفسی کلبا طالعت شعره الحافل بشتی
النوازع التي تكشف عن روح صوفیة شفافة تتجلی لها سرائر
الحیاة .

حقاً ؛ كنت صديقاً ولخليل مردم، قبل أن أراه . فلما حظيت
معه بتلك الجلسة الصافية التي لم تستغرق إلا ساعة وبعض ساعة .
وهو يتحدث إلى في فنون الأدب والثقافة ، وجدت في حديثه
مصادق تلك الشخصية التي عرفتها له في شعره .

لقد استبان لي فيه خلتان مميزتان متكاملتان ، تدعم إحداهما
الأخرى . أما الخلة الأولى فإيمان بالعروبة راسخ لا يعلو عليه
إيمان . وأما الخلة الأخرى فالحفاظ على التقاليد الشرقية في إصرار
ليس وراءه إصرار .

كان كل عرق فيه ينبض بهاتين الخلتين : جهده عليهما موقوف ،
ورحمته في سبيلهما لا تفتر . وآية ذلك ما خطه من دراسات في
الأدب ، وما نهض بتحقيقه ونشره من ذخائر السكتب . بل إنه في
شتى مناصبه العلمية في المجمع العربي ، ومناصبه السياسية في الدولة ،
كان يمثل تلكم الخلتين في مختلف مظاهرهما القومية واللغوية
والأدبية على السواء .

لم تكن عروبيته أو شوقيته عن جمالة أو تمصب أو جمود ،
فذلكم رجل تنوعت مناحي ثقافته ، وتعددت أسفاره ورحلاته ،
تعلم من اللغات الأجنبية ما تعلم ، وأفاد من الاطلاع ما أفاد ،
وعرف من أنماط الحضارة الفكرية والاجتماعية ما يوسع أفق

الذهن ، ويفسح مجال الرأى ، ويهب قوة التساثر والاختيار والاعتناع ، فإذا آمن بعد ذلك بمقومات العروبة وخصائص الشرق ، فإنما هو إيمان عن وعى وبصيرة وتقدير ، وإذا أثر روح الحفاظ للتقاليد والتؤدة فى اصطناع الجديد من الأنماط فإنما هو الإيثار القائم على العقيدة المستنيرة والرأى المختصر .

ربما كان المرحوم « خليل مردم » فى تهمسه للقديم ، وفى مصادرته لدعوات التجديد ، لا يخلو من بعض الغلو ، ولكن مرد ذلك إلى ما امتلأت به نفسه من حب للعروبة والشرق ، وهو حب شاعر ، ولا تثريب على من أحب أن يغلو ، ولا سيما الشعراء ، وصدق شاعرنا « شوقى » فى قوله :

« ولكن من أحبّ الشئ حابى »

ليست روح المحافظة مما يستهان به فى تقويم النهضة ، وفى توفير التعادلية للمجتمع ، فالمحافظة إنما تمثل فلسفة لها دعائمها فى الحياة ، ولها نصيبها من الحق ، فهى عامل من عوامل الخير ، وعنصر من عناصر السداد فى التقدم ولا غناء عنه فى فورات التطور والتوثب التى تفتقر إليها الأمم عند الصحوة من سبات بعيد ، ولعلنا أحوج إلى قبس من روح المحافظة فى عالم قد اضطربت فيه موازين القيم ،

واختلطت معالم الأوضاع، وعز استخلاص الحقيقة المجردة في لبها،
الصميم وجوهرها المصنفي .

في مثل هذه الحقبة تبدو المحافظة أركانها ثابتة ، ومعالمها واضحة ،
ومغبتها مأمونة ، سريعاً ما ترجى منها السلامة . ذلك لأن المحافظة
تستند إلى تجارب مرت ، وخبرة استفيدت ، فقضاياها ركائز ثابتة .
في بناء المجتمع ، ومفاهيمها جليلة في أذهان الناس ، ومن ثم تطمئن
إليها الأفتدة ، وتسكن الخواطر ، وتمضى في طريقها الخطى على .
غير قلق .

نحن في حاجة إلى مجددين يشقون في الحياة آفاقاً مجهولة ،
ويبشرون في المجتمع بقيم لم تسكن مألوفة ، فتلك سنة التطور
والتقدم ، وليس من سنة الوجود مناص . ولكننا في حاجة كذلك
إلى من يدعم حياتنا الحاضرة بتقاليدها الموروثة ، ريثما تقوم
بإزائها حياة جديدة مأمولة ، فالهدم قبل البناء شطط ، والبناء على
الخواء لا يقوم . والحاضر والمستقبل متداخلان لا يفصل بينهما
فاصل متميز ، كلاهما يأخذ من الآخر قبل أن تتبين بينهما الفواصل
الحاسمة ، كما يلج النهار في الليل ، أو كما يلج الليل في النهار الظلمة .
الرقيقة تمازج النور حين الغروب ، والضوء الهين يخاطب الغبشة في .
مطلع الفجر .

لا بد لنا من روح المحافظة ، فهي ضرورة اجتماعية ، لأنها
إبقاء على مقومات حياتنا الحاضرة ، حتى تتجلى الفكرة الطارئة ،
وتستقر الأوضاع الجديدة . فإن هدمنا قبل أن نبني وقفنا في عهد
الانتقال يسوده الاضطراب ، ولعل استبقاء مقومات القديم خلال
عهد التجديد مما يعين على البناء المتين في غير ارتجال ، ومما يتيح
للتجديد فرصة التمكن والاتزان .

وهكذا كانت روح «المحافظة» عند خليل مردم ، وليد تفكير
فلسفي عميق في التطور الاجتماعي الرشيد .

كان شاعراً محافظاً ، ولكنه لم يكن شاعراً بدوياً في
الموضوعات والأخيلة والتصورات ، ولا في المشاعر والأفكار ، وإنما
كان شاعراً عصرياً استفاد بما اطلع عليه في عصره من أنماط الحياة
الاجتماعية وآدابها وأفكارها على نطاق فسيح ، فاصطبغ بها عقله
ووجدانه وذوقه ، ولكنه احتفظ في شعره بالقوالب الشعرية
المتعارفة ، وبأداة التعبير المألوفة ، أو بما يسمى «عمود الشعر» في
الأدب العربي . وتلك هي صورة الشعرية وأخيلته وموضوعاته
تمثل عصره الزاهي بأزكى ما يعتلج فيه من أفكار ومشاعر وأهداف
وذلك هو «تجديد المحافظين» ، يصلون الماضي بالحاضر ، فلا ينقطع
جراه ، ويجعلون من أدب العروبة سلالة مستبينة الخصائص مصونة

الأنساب ، مبرأة من شوائب الهجنة والاختلاط ، كشأن التجديد
عند شعراء العباسيين الأول . حافظوا على عمود الشعر العربي ،
وتصرفوا في الموضوعات والأخيلة ما شاء لهم عصرهم الجديد أن
يتصرفوا في طلاقة واستجابة للحياة .

ولعل أعجب ما راعى من شخصية « خليل مردم » أنه كانت
تنزوج فيه نزعتان : الأولى هدوء الطبع وسماحة النفس ، والآخرى
صلابة الإرادة وقوة الإصرار .

حين نقرأ له شعره ، تنعكس لا نظارنا هاتان النزعتان ، هناك
رقة وصفاء ، إذ يصف مباحج الطبيعة ، ويجلو خواطره فيما تراه
للعيون وما يتخالج في النفوس . وهناك تأجج واضطرام حين
يتغنى بالأجناد القومية ، ويحيى بطولة الجهاد والفداء . هو في نزعته
الأولى كهرار يشدو فيشيع في القلب طرباً ، ويمأ الدنيا حوله
بالحان الحب والسلام ، وهو في نزعته الأخرى أسد يزأر فتدوب
في حرارة زئيره القيود والقضبان ، وتحس الدنيا وقد انقلبت
حرباً على الاستعباد والاستبداد .

كان « خليل مردم » شاعراً حاد الإحساس ، مرهف العاطفة ،
مفتوناً بالجمال . يتصباه بالجمال إذا رآه ، ويتصباه إذا استشعره ،
ويتصباه إذا قرأ تعبيراً عنه . وكأنما كان يزوره الجمال ألا تراه
(١٠)

عيون الناس جميعاً . سواء أكان الجمال في شعر يقرؤه ، أم لوح من ألواح الطبيعة يراه ، أم معنى من معاني المجتمع يدركه . فينقل إليك في الدواوين التي نشرها ما أعجبه من شعر جميل لغيره من الشعراء ، وهو ينقل إليك في شعره صوراً جميلة من الحياة ، وكأنه ينشر لك ما أعجبه من شعر الطبيعة والوجود .

لقد أخلص نفسه لجمال البيان في كل عصر ومصر ، وشغلته مفاتيحه في نثر وشعر . فعنى بدراسة طائفة من أعلام البلاغة في الأدب العربي ، وأرصد الموفور من وقته وجهده لنشر دواوين جملة من الشعراء ، وكتب اسمه خادماً لهذه الدواوين ، يحلو عنها غبار الزمن ، ويقدمها متاعاً أدبياً للقارئ . لقد ذكر هؤلاء الشعراء ، ولكنه نسي نفسه وهو الشاعر المطبوع ، والفنان الموهوب ، فهو قد بر بشعراء الجمال الفني على اختلاف الأمصار والأعصار ، وأنساه البر بدواوينهم أن يبر ديوانه ، فتركه غير منشور ، تركه للتاريخ ، تركه أمانة لغده ، وفرغ هو لأمانة الشعر يؤديها لمن سبقه من الشعراء ، فاستوجب على من بعده من المعاصرين أن يردوا له الجميل .

ما سعت إلى هذه القاعة ، للتعريف « بخليل مردم » ، فإن الجو الذي يحيط بي فيها يعرف من أمره فوق ما أعرف . ولو أتيح للكائنات

من حولي أن تنطق لراحمتي على هذه المنصة : أندى صوتا .
وأفصح منطقا ، وأبلغ بيانا .

إنما جئت هنا لأحمل من ذوب روحي ، ومن أعماق قلبي ،
تحية خشوع وولاء وإجلال لذكرى فقيد كريم ، ودّع حياتنا
العاجلة ، تاركا لنا أغلى ما يتركه الراحل للمقيم في هذه الحياة :
لمسات شاعرية رفيعة ، فيها للإنسانية المعذبة جوهر نفيس من
السلوة والعزاء .

محمود طاهر لاشين

يحكى أن ...

منذ ثلاثين عاما أو يزيد ، كانت أندية القاهرة ، تعرف طبقة
من ناشئة ذلك العهد ، لاتفتأ تلمج بأهداف تلوح لها كأنها أطياف
وأشباح وظلال ...

وكانت أهداف هذه الطبقة تتركز في أن النفسية المصرية في
المجتمع الجديد لم تعد تستسيغ الألوان التي بدا بها الأدب في تلك
الأيام ، فهي تستشرف لأدب حي ، وتعبير جديد ، تختلج فيه
ما تنطوى عليه القومية المصرية من عزيمة وتحمس وطماح .

لم تكن هذه الناشئة الحديثة تملك في ذلك الوقت إلا تلك
الشعلة المقدسة التي تتوهج بين الجوانح ، فتبعث فيها ضوء الإيمان ،
وحرارة الاعتقاد ، وتثير فيها روح الحمية والإقدام ...

ويحكى أنه ... كان من بين تلك الرفقة المتطلعة شاب مرح
المجلس ، بسام الحيا ، سريع التسكته ، ذكي النظرات ، اسمه : محمود

طاهر لاشين . وهو الذى عرف له القراء من بعد كتابه القصصى الطريف « يحكى أن ... » . وقد أبت الأقدار منذ أيام إلا أن تختم هذا الكتاب بقصة تقليدية ، هى قصة المؤلف نفسه ، إذ يلقي على الدنيا تحية وداع ...

كان « طاهر » من بناء القصة المصرية الأوائل ، كتبها بوحى من موهبة أصيلة وتابع عمله فيها مثابرا دؤوبا يتسامى بفنه درجة بعد درجة ، فترك للأدب المصرى ذخيرة باقية تتمثل فى كتبه التى منها : « يحكى أن » ، و « سخرية الناي » ، و « النقاب الطائر » .

أخص ما عرفنا به أديبنا القصاص أنه برع فى تطويع قلبه لرسم الصور والمشاهد التى تجول فى خياله ، والتى كان ينسج خيوطها من قلب المجتمع المصرى وأوضاعه المتميزة ، فإذا قرأت له قصة تمثلت نماذج دقيقة من يثنتنا المصرية بشخصياتها وألوانها ذات وميض ورفيف ، والمؤلف مستخف ورامها لا تكاد تحس له تدخل أو تطفلا يفسد عليك متعتك فى تذوقك لهذا الأدب القصصى الفنى ...

لقد صرفته شواغل الحياة عن مواصلة التأليف ، حقبة من الدهر ، فأخلى مكانه باختياره ، والأدباء يتفقدونه فيه ، ويتساملون

مبسوط القامة ، مرفوع الهامة ، يلقي قصيدة رنانة في تنعيم وترنيم ،
والأذان مصغية إليه في شغف ، فوقفت بين الجمع أستمع ، وأعجبت
بالشاعر المنشد ، وما إن انتهى الإلقاء ، حتى صفقنا كلنا طربا ،
وسألت :

من الرجل ؟

فعلبت أنه « محمد السباعي ، أستاذ الترجمة في المدرسة .

لقد راعني من الأستاذ يومئذ إقبال الطلاب عليه ، وتوددهم
إليه ، رافعين السكافة ، مطرحين الهيمية ، كأنهم إخوة صغار بين
يدي أخ كبير ، يناقلونه المداعبات ، ويبادلونه الأفاكيه ، حتى إنهم
كانوا إذا أطلق نكتة تصايحوا به :
أعد . . . أعد . . .

كشأنهم معه حين يستعيدون منه إنشاد أبيات من الشعر .
كانت وقفته . والطلبة حواليه ، ترسم صورة واضحة لشخصية
« محمد السباعي » الأديب : رجل بجراح مراح ، أريحى النفس ، رضى
الروح ، في طبعه سماحة أصيلة ، وفي شمائله طرافة جذابة ، لا تسكاد
تجالس له وتتحدث إليه ، حتى تدأجه وتأنس بحديثه ، وإذا أنت تحس
أنه قد أصبح لك صديقا حبيبا .

ولبثت أتتبعه بعد ذلك ، في مجلة « البيان » ، وفي صحيفة « البلاغ » .

وأختها «البلاغ الأسبوعي» ، وفي غيرها من الصحف والمجلات ،
وفيما أخرج هو من المطبوعات ، كاتباً يدبج فصولاً في الأدب ،
والاجتماع ، ومترجماً ينقل عن اللغة الإنجليزية من روائع الأدب
الشرقي «رباعيات الخيام» ، ومن بدائع الفن القصصي شكولاً
وأفانين للقاص الفرنسي «موباسان» ، والقاص الروسي «تشينخوف» ،
وأضربهما من مشاهير الكتاب .

و «السباعي» أديب له منهجه في الترجمة ، وطابعه في التعبير ،
وإن شخصيته لتتوضح فيما نقل من الشعر ومن النثر على سواء .
فأنت حين تقرأ له ترجمة «الرباعيات» نظماً نحس بأن معاني
«الخيام» وأخيلته وأفكاره لم تجد من قلم «السباعي» مجرد ساعي
بريد ، بين المرسل والمرسل إليه ، ولكنها صادفت شاعراً يتفهم
روحها ، ويهيم في جوها ويحرص على أن يعبر عما تفهمه واستشعره
في أناشيد متينة النسيج ، ألفاظها منتقاة ، وقوافيها محكمة ، لا يسلس
عنانها إلا لأديب مكين ، وشاعر رصين .

ولعل «السباعي» فيما صنع كان يحذو حذو «فترجرالد» في
نقله «الرباعيات» إلى الإنجليزية ، كلاهما استوحاها وتنفياً ظللها ،
وكلاهما أطلق لشاعريته حرية الإفصاح عن مراميها ، وكلاهما قدم
للغة بذلك طرفة من الأدب الوجداني الروحي ، فيها للنفوس
بهجة ، وللأذواق متاع .

في ترجمتهم بنقل دلالات الألفاظ والجمل نقلاً مجرداً لآحياء فيه ، وفي حسابهم أنهم التزموا الأمانة والدقة ، فأراني أرتى للقارىء العربى إذ يعنى نفسه بقراءة قصة من هذه القصص ، فسيخرج منها ولم ينتقل إلى فكره سرها السكين ، ولم ينفذ إلى قلبه سحرها الخلاب ، بل أراني أرتى للمؤلف التاعس الحظ الذى وقع عمله فى برائن ترجمة لم تحسن تأدية المعنى ، ولم تستطع نقل الروح .

ويجب أن يذكر « السباعى » ومن عاصره من أعلام مترجمى الأدب العربى أنهم أصحاب الفضل فى المحاولات المبكرة . لو صنع تقاليد تعبيرية فى مجال الترجمة ، فلم تكن العربية يومئذ قد مرنت على استخدام عبارات مستقرة تترجم بها نظائرها فى اللغات الأجنبية لأداء المعانى الأدبية . ولقد كان « السباعى » طويلاً الباع فى هذا المضمار ، فهو من الكتاب الفصحاء الذين قدروا على تطويع العربية لأداء مقتضيات التعبير فى الأدب الحديث .

ولقد كان أديبنا « السباعى » غزير المعرفة ، واسع الاطلاع ، توافاً أن يزود القارىء بخير ما جنى له من الثروات . ولعل صبغته التعليمية التى كانت له فى مطلع حياته أستاذاً فى معاهد الدرس ،

هي التي بعثته على أن يجمع في بعض مقالاته بين ما قرأ في الكتب والصحف ، وما اختزن في ذهنه من معارف ومعلومات وتوجيهات ، في مختلف مناحي الأدب والفكر والحياة والمجتمع .

زكى مباركى

منذ سبعة عشر عاما أرئحوها ، فى يوم صفا أديمه ، ورق
نسيمه ، كما يصف بعض البلغاء ، كنت متخذاً سمتى نحو المحكمة
لبعض أمرى ، وأنا مشغول بما يحول فى رأسى ، فإذا أنا بغتة أمام
رجل ذى قامة وافية ، تسكوه حلة ضافية ، وهو يخب فى سيره ،
محلول رباط الرقبة ، وقد تأبط رزمة حافلة بالصحف والكتب
والأوراق ، وعلى بياض طلاقة وبشر ، وفوق رأسه طربوش مستلق
إلى وراء ، يطل من حافته شعر جعد مهوش . وما أسرع أن أقبل
نحوى ، وضرب كتفى ، قائلاً لى :

هل قرأت قصيدتى الغزلية فى «البلاغ» أمس ؟

فلممت شتات فكرى ، وأجبت :

وهل يفوتنى ذلك يا دكتور ؟

— وما قولك فيما قرأت ؟

— قصيدة غراء ، وفريدة عصماء ، كشأنك في كل ما تنظم ...

— إنك تشفى عليها إشفاقاً على نفسك مني أيها الصديق .

— وماذا تريدني أن أفعل ؟

— قل الحق ، ولك الأمان ...

— اصدقني يا دكتور ، . . . أتلتزم أنت الحق دائماً في كل .

ما تقول ؟ ..

— إنك تعلم ، وغيرك يعلم ، أن «الدكاترة» زكي مبارك . أجرأ

خلق الله ، وأنه لا يخشى لومة لائم في قوله الحق ...

— وقولة الباطل ... أجرىء أنت في قولها أيضاً ؟

— ماذا تعني ؟

— أعني أنك ربما استطعت أن تعطى الباطل صبغة الحق ،

بفضل ما أوتيت من قوة حجة ، وتوقد قطنة . . . هل تعوزك .

المهارة واللباقة يا «دكتور» ؟ .

فتعالى بقمهمة ريفية مجالجلة ، قال وهو يضرب يدي :

أنا كما ترى أن أكون ... حسبي ألا تنكر جرأني وشجاعتي .

أيها الصديق . . . وما أقرب الباطل من الحق ، وما أقرب الحق من

الباطل ، في بعض الأحيان ، حتى لكانهما سيان !

فقلت له مبتسماً :

إن اعترافك هذا أكبر دليل على ما امتزت به من جرأة
وشجاعة .

فسكت سكتة قصيرة ، ثم صاح :

اسمع مني مصداق ما تقول ... ماذا تعلم من أمر وكيل الوزارة
فلان ، ذلك الذي قلت فيه : إنه قباني بلا ميزان ؟

فبادرت أقول :

هل جد في أمره جديد ؟

— ترحم عليه .

فغفرت في قائلا :

لم أعلم بالنبأ . متى ؟

— ذهب روحه ، أو قل : ذهب ريحه ، وأنا الذي قتلته
وكفنته ، وواريته الثرى .

ثم استل إضمامة من الرزمة التي يحملها ، وبسطها في يده ، فإذا
هي تجربة لمقال عليها إصلاحات بالقلم ، وقال :

هذه شهادة وفاته ، ستظهر غدا على رأس موضوعات مقال :

« الحديث ذو شجون » .

فهممت قائلا :

إنا لله وإنا إليه راجعون . ولماذا لم تتركه يطول عمره قليلا

يا دكتور ؟ .

— لقد طويته ونشرته ، وهكذا أراد لنفسه . إنه جهد حق ،
وتعرض لسخطى . على أنى أكرمه بهذه الميثة الأدبية الرفيعة .
من يمت بسيف « زكى مبارك » ، ناله شرف عظيم . لقد كان شرفاً
« للخوارزمى » ، أن يفحمه « الهمداني » ، أشد الإفحام ، ويقضى عليه
بالموت الزؤام .

— نعم . كان العراق بينهما شديداً ، فيما سجلته كتب الأدب
والتاريخ .

— أى كتب يا سيدى ؟ هل قرأت ما كتبه أنا فى ذلك فى
كتابه « النثر الفنى » ؟ . أروع روائع الكتب التى تمنحض عنها
القرن العشرون ؟ .

— كتابك الذى شهدت له جامعة « السوربون » ، وأنا لتك
عليه إجازة « الدكتوراه » .

— ستهدم « السوربون » وغيرها من جامعات « فرنسا » بل
جامعات العالم أجمع حجراً حجراً ، ويبقى اسم « زكى مبارك » ،
وكتابه « النثر الفنى » . لا تشك فى ذلك أيها الصديق .

— وهل ظننت أنى أشك يا « دكتور » . كل ما فى الأمر أنك
ذهبت بكتابك ليطلع المستشرقون على ثمرات بحثك ودراستك ،
فيزدادوا معرفة بأدبنا العربى ، وإيماناً بعقريته .

— لقد كنت هنالك في « فرنسا » مهوى أفئدة الناس من
مستشرقين وغير مستشرقين . من رجال ونساء . لا تنس أيها
الصديق أن الحسان الفواتن في « باريس » كمن يتعشن قى .
« سنتريس » ١

— ولكنك يا « دكتور » لم تهو إلا « ليلي » المريضة في العراق ،
وباسمها أخرجت كتابك المعروف .

— إن لى فى كل مكان « ليلي » مريضة بحب . ألهما أنس .
الحياة ، وتلمنى روائع القريض .

وهنا لمح سيارة أجرة مارة ، فتثنى عنى عجبولا ، وصاح
يستوقفها ، فلما أطاعت جذب منها راكبها ، فنزل يصالحه ، وانخرط
معه فى حديث فياض تتناول أطرافه القصيدة الغزلية ، والمقال
الذى ينهى وكيل الوزارة ، وهو حى يحكم ... وطالت بهما الوقفة ،
وسائق سيارة الأجرة يعجب لما بينهما من إرخاء وشدة ، وأخذ
ورد ، وهو ضجر ملول يحار بالشكوى ، ولا يجد من سميع .

وفاتنى يومئذ أن أدرك موعد المحكمة ، ولكن ما كسبته من
ذلك اللقاء الطريف بينى وبين « قى سنتريس » كان فيه العوض ،
فلم أشعر بضيق . وإن وقفة واحدة لك مع « زكى مبارك » خليقة .
أن تظهرك على كل شىء فيه ، ما علم منه واستثر ، لقد كان ينفذ .

نفسه نفصا، ويكشف عن جليته كنهها ، فيركز لك خصائص شخصيته،
ويقدمها في سهولة ويسر ، دون أن يرهقك في تعرف هذه
الشخصية ، واستبطن أسرارها ، والتفطن إلى ما فيها من طرافة
أو شذوذ .

يبدأ حديثه معك بنكتة أو نادرة ، وينقلك منها إلى تحقيق
لغوى أو أدبي ، ولا بد أن ينطوى التحقيق على غمز ولما يصيب
به القريب أو البعيد ، وفيما هو كذلك يثك لواعج هيام بهذه أو
تلك ، من يسمي أولا يسمي ، وإذا أنت فجأة معه في « سنترس »
يربك جهوده لإنهاض ذلك البلد الريف الذي كان مسقط رأسه ،
ويتخلل هذا كله أنباء مبارزة وطعان مع الأقران وغير الأقران
على اختلاف الألوان .

إنه كشكول حي مبهر ، بل مسرحية مختلطة ، فيها مشاهدشتي ،
من مأساة وملهاة ومهزلة . أو لكأنه برج بابل : ملتقى النظائر
والأضداد !

نشأ د زكي مبارك ، نشأة أزهرية ، تمكن فيها من العلوم
العربية والإسلامية التي تميز بها د الأزهر ، ، وأعلى الأصح انفراد
بها كل الانفراد ، وقد ظلت هذه النشأة أساساً قوياً لحياة الرجل
فيما بعد ، على الرغم من انتقاله إلى آفاق جديدة في الدراسة والتعليم

وكان لنظام التعليم الأزهرى لذلك العهد محاسنه التى لا تحصى ،
كما كانت له معاييه التى أملاها روح العصر وطابعه .

وعلى رأس المحاسن أن نظام الدراسة فيه كثير من الحرية
والانطلاق ، وفى ذلك ما يعين ذوى المواهب على أن يجدوا
ما يصقلها وما يتيح لها التألق والسطوع . فالطالب غير ملزم بفصل
معين ، وخصص تتوالى ، ومناهج مقررة ، وواجبات تفرض ،
ومعلمين يريدون الطلاب على ما يريدون ، وامتحانات تتعاقب على
على السنين ينتقل بها من مرحلة إلى مرحلة . ومن ثم يجد الطالب
نفسه فى فسحة من وقته وتفكيره واختياره ، لا سلطان لأحد
عليه فى ذلك كله ، فهو وشأنه فى العلوم التى يؤثر أن يدرسها ،
والمعلمين الذين يطيب له أن يتلقى عنهم ، والمرحلة التى يرى نفسه
أهلا للانتقال إليها . وكان من أثر هذا أن استوثقت الصلة بين
الطالب والمعلم : يجلس إليه فى حلقة درسه ، ويؤزره فى بيته ،
ويصاحبه فى غدوه ورواحه ، ويتخذ رائدا وأبا روحيا له ،
ولا تكاد تنفصم هذه الصلة على طول المدى ، وإن بلغ الفتیان سن
الاشياخ ، وقعدوا معهم مقاعد الدرس والتلقين .

على أن الأزهر فى هذه الحرية والانطلاق كان مضروبا عليه
نطاق ، فهو فى داخل إطار ، وخلف أسوار : إطار مؤلفات متعارفة ،

لا مزيد عليها ، وأسوار مبادئ مسلمة لا تشكيك فيها . فإن ساغ
النقاش في المسائل ، والجدل في الفروع ، فما يسوغ ذلك بحال من
الأحوال في أسس وقواعد تنزل منزلة العقائد ، فهي حرية في
التفاصيل ، ولكنهما تنطوي على تقديس للأصول .

ومع ذلك استطاع هذا النظام الدراسي الأزهرى أن يخرج
أفذاذا في الفكر والرأى ، ازدهرت بهم نهضة العلم والأدب ، وفي
ظلها نضجت شخصية أولئك الدكاترة ، الذين كان يجمعهم في
إهابه « زكى مبارك » .

في مقالاته وأحاديثه تجلّت فضحات الحرية والانطلاق ، كما
برزت خاصة الاستطراد التي شاعت في الكتب الأزهرية ذات
الشروح والخواشى والتقارير ، فهي تتطرق من موضوع إلى
موضوع ، وتتنقل بين أشتات من النواحي والجهات ، على طريقة
« الشىء بالشىء يذكر » ، أو « كما كان يسمى « زكى مبارك » مقالاته :
« الحديث ذو شجون » .

وفي تلك المقالات والأحاديث من الروح الأزهرية صلالة
في الדיاد عن اللغة العربية والأدب العربى والمقومات الإسلامية ،
فهو أديب عربى قح ، ومفسر عربى محض ، تملكه الإيمان
بالعربية والغيرة على العروبة ، على الرغم من تحليقه في آفاق أخرى

من الثقافة والتفكير .

تعلم الفرنسية في صدر شبابه ، متطلعا إلى المزيد من الثقافة الأجنبية التي لا مجال لها في «الأزهر» ، ولا ريب أن مسلك أستاذه الدكتور وطه حسين ، قبله على هذا النحو قد أثر فيه أعمق التأثير ، حتى أوحى إليه كذلك الخروج من «الأزهر» إلى «الجامعة المصرية» في عهدهما غير الرسمي ، فمضى في الطريق نفسه ، ونال إجازة «الدكتوراه» من تلك الجامعة الفتية ، ثم قصد من بعد إلى «فرنسا» ولبت يكافح حتى ظفر منها أيضا بإجازة «الدكتوراه» الجامعية .

ولعل «زكي مبارك» يبين الذين انصرفوا إلى اللغات الأجنبية ودراساتها في أنه لم يطلب بها علما ولا أدبا ، وإن اكتسب ما تيسر له من مناهج البحث وطرائق الدرس ، فكأنما كان مبعوثا إلى «فرنسا» لأداء مهمة ، والاضطلاع بخدمة ، هي التعبير عن اعتزازه بأدب العروبة وحضارتها ، وإقناع المستشرقين بطول الباع ، والقدرة على التخريج والإبداع .

لم يكن الرجل كغيره من أصحاب الدراسات والإجازات الأجنبية ، ينقلون ما درسوا في علم أو أدب أو تاريخ ، أو يحاكونه فيما ينشئون من بحث أو قصة أو شعر . وعلى الرغم من فرنسيته

اللغوية لم تظهر عليه مسحة أجنبية في النمط الفكري أو الأسلوب الكتابي ، بل عهدناه عربيا صميما ، لا تخلو كتاباته من عنجهية أنيسة ، ولوثة أعراية محببة ، بل لقد يغلت قلبه أحيانا حتى يبلغ حد التطرف والجماح .

ولقد مضى « زكي مبارك » عن إنتاج أدبي ضخم ، فسيح الرحاب ، كثير الشعاب ، فن بحث وتحقيق وموازنة بين آثار الأدباء المحدثين والقدامى ، إلى شعر ينظمه للتسرية عن النفس والإبانة عن حيوية العاطفة ، ومن أمشاج من الخواطر والأسمار والتعليقات على الغايات الرائحات من الشئون والأحداث ، إلى مشاجرات قلبية لا يمل فيها أن يصاول معاصريه ما وجد إلى الصيال سبيلا .

والبحوث التي توفر عليها « زكي مبارك » متوج أهمها بشهادة الأعلام الجامعيين في « مصر » وفي « فرنسا » ، أولئك الذين أقاله اعترافهم أعلى الإجازات الجامعة قدرا ، ومهما يكن من أمرها فليس ريب في أنها كانت بواكير موفقة لحركة التجديد في الأدب العربي ، ورفع مستوى البحث فيه إلى تلك المستويات التي ارتفعت إليها طرائق البحث والنقد في الآداب العالمية العصرية ، وإنما لترداد من الناحية التاريخية قيمة بأنها كانت بدء انطلاق ، ومطلع

آفاق ، ثم هي من الناحية العلمية حصاد جهد دائب ، وسهر موصول ،
لم يدخر فيه صاحبه وسعا في الاطلاع والتنقيب والتحصيل .

وشعر « زكي مبارك » يتميز باثنتين : فصاحة ، ودماثة . فهو
لين اللفظ والأسلوب ، متين النسيج والقافية . وفي معانيه العاطفية
طراوة وعذوبة ، وليس يعوزه الطابع الموسيقي على الإيقاع العربي
المتوارث . وكان هو يعتز بهذه الصفات فيما ينظم ، ويجدها حقيقة
بأن تجعل منه أشعر الشعراء ، يشهد بذلك لنفسه ، وكفى به
شهيدا .

وأحاديث « زكي مبارك » تكشف عن موهبة فيه ، هي موهبة
المسامرة والمناقلة ، في هذه الأحاديث تشف روح طبيعية برئت
من التكلف والتزيق ، فهي صورة صادقة لما ينطبع في وجدان
الرجل من مشاهد وذاكرات ، ومن خواطر وتأثيرات وهو
يرسلها عفو القلم ، وفيض البديهة ، لا تروية فيها ولا تدير ؛ ولكنه
ينبرى للحديث فيواتيه سيل منهمر ، تتداعى فيه المناسبات
والذاكرات والمعلومات والخطوات في تشابك واشتجار ، ولكنه
متآلفة مع ذلك بقوة الروح ، ووحدة المناداة ، ولطف الوصل
بين البعيد والقريب ، فأنت متنقل في حديثه الذي تقرؤه له بين
نقدات ومعاينات ونوادير ، في غصونها استبدراك فلسفي ،

أو استطراد عاطفي ، أو تعليق نحوي ، أو شكوى شخصية . وكأنك تستمع إلى مذياع ينقل مفتاحه من تلقاء نفسه بين محطات الإرسال في شرق وغرب ...

وقلما يخلو سمر من أسماره من لجة تتناول الجمال وافتتانه به . ولم يكن ذلك عجباً من صاحب مدامع العشاق ، دوليل المريضة في العراق ، ولكن العجب أن تتبين في حديثه افتتان الجمال به . ووقوع الحسان في شباكه ، وإنه ليوغل في هذا إيغال من يقف من خصومه أو عواذله في هذه القضية موقف التحدي ورد الافتراء . ونقض الادعاء .

وأما مشاجراته القلبية فقد كان فيها مطواعا لفطرتة ، منساقاً مع الشيمة البدوية أو الريفية في إثارة الصراحة العارية . فهو إما رأى شيئاً ينكره ، انبرى ينقده ويشهر به ، غير آبه بما تواضع عليه الناس من الكياسة والحصافة والتزمت وتجنب الاحتكاك والهجوم . وما كان ذكياً مباركاً ، يؤمن بتلك الطراوة العصرية في عاسنة الناس بعضهم لبعض ، ولكنه كان عارم الرغبة في البوح بمكنون وجدانه ، دون محاباة أو مواربة . ومن ثم يكتسب حديثه طابع الخشونة والجفوة واللاقتحام ، وقد أفاد الرجل من ذلك أنه أراح ضميره ، بيد أنه أحاط نفسه بضروب من العداوات والمناوآت .

وإن لم يأبه لها ، إذ بسط كل ما يحوك في صدره ، ونفض عنه ما يثقله ،
فصفا قلبه ، وسلبت طويته ، وسهل عليه أن يصادفح في يومه من
هاجته في أمسه ، صادقاً في مودته ، كما كان صادقاً في خصوصته .

ولا يعوز القارىء أن يلتبس صفاء نفس « زكى مبارك » في
كثير مما كتب ، إذ يصادف في تعليقاته تحية لرجل كانت بينهما
علاقة في درس أو مجلس ، وذكرى لراحل كان له أستاذاً أو كانت
بينهما مشاركة في عمل ، وما يشبه الترضى والإعتاب لرجل هاجمه
من قبل أعنف هجوم ؛ معترفاً بحميل له عليه أو معجباً برأى أبداه
ومن آيات وفائه واعتزازه بمشخصاته أنه كان لا يفتأ يذكر
« سنتريس » مسقط رأسه ، حتى أصبح اسمها مذكوراً كأنها كبرى
العواصم لا إحدى القرى ؛ فأناست في أدبنا العصرى معاهد العصر
الجاهلي من نحو « مسقط اللوى » و « الدخول » و « حومل » في شعر
« امرئ القيس » !

ولعل أصدق وصف « زكى مبارك » أنه طفل كبير ، احتفظ
بما للطفولة من سرعة النسيان للإساءة ، وترك الاحتمال للحقد ،
وخلوص الضمير من كوامن الضغن ؛ فإنك لترى الطفل غضوباً
على رغبة في شيء من الأشياء ، ولا تلبث أن تراه ملاعباً له .
ناسياً ما كان بينهما من مغاضبة وشحناء ، بل لعل ذلك كان منه
سبيلاً إلى توطيد صداقة ، وتمكين إخاء !

سلام على ، زكى مبارك ، . . .

كان مثلاً للجسد والدأب فى التكوين والتحصيل ، وكان شعله
نشاط فى التأليف والتدريج ، وكان شخصية بارزة فى مجتمعنا
الأدبى ، أحس وجودها من حولها ومن هو عليها . والرجل العظيم
لا تخلو حياته من صديق وخصم !

الاهتمام بالدراسات العلمية البحتة والمباحث الاجتماعية العميقة مما لا ترحب به الصحف إلا في الندرة ، وكان الناشرون أشد من الصحف عزوفا عن تلك النواحي ، وأكثر ميلا إلى التأليف الذي يحقق غرض التسلية والترفيه ، فلم يجد بدا من أن يسخر ماله لأداء رسالته ، فما كان الفقيه بالكاتب الذي ينشد التسكيب بقلمه ، ولا كان ممن يبتغون الشهرة وبعد الصيت بين جمهور من القراء يتخذون القراءة طهواً وتزجية وقت فراغ . وإذا نحن نرى « إسماعيل مظهر » ينشئ مطبعة ودار نشر ، عنهما تصدر مجلة « العصور » الشهرية وأختها الأسبوعية ، وعنهما تخرج الكتب والمؤلفات لصاحب « العصور » ولغيره من الأدباء والعلماء . وتجلي طابع المجلة ودار نشرها واضحاً بين سائر المجلات ودور النشر ، فقد ظهرت « العصور » تؤازر مجلة « المقتطف » في الحرص على تزويد القارئ بأحدث المعارف الإنسانية ، وبأعمق المباحث في ميادين العلم والأدب والاجتماع ، وتميزت بالحرية والطلاقة في تقديم الجديد من الآراء والأفكار والنظريات ولم تكن الكتب التي نشرتها « دار العصور » لتجد طريقها إلى الجمهور ميسوراً في دور نشر تزن ما تصدره بميزان الربح والرواج . وهكذا ترفعت مجلة « العصور » أن تكون مورد كسب كما ترفعت دارها للنشر أن تكون بضاعة للتجار .

وإذا كان صاحبهما قد فقد فيهما الكثير من حرما له ، فلا ريب في أنه أدى بهما رسالة فكرية رفيعة ، ولا ريب في أنه أسدى بهما مائدة يذكرها له تاريخ الصحافة والثقافة بالفخر والإعزاز .

تعددت الآفاق التي ارتادها « إسماعيل مظهر » بقلبه وفكره . ودراساته وجهده ، فهو في محيط العلم ناقل « أصل الأنواع » ، لداروين ، وهو في حقل الأدب مترجم بعض لوامع « طاغور » ، وهو في ميدان الاجتماع صاحب البحوث المبكرة في المذهب الاشتراكي ، وهو في مضمار اللغة السابق إلى التأليف المعجمي في اللغتين الإنجليزية والعربية تأليفاً يقر أسساً وطيدة للمصطلح العلمي . تسد حاجة الدارس والمعلم والمترجم .

وإن هذه النواحي التي تنازعت فقيدنا العظيم ، وجعلت منه رجلاً متنوع الجهد ، متشعب السعى ، لتكشف فيه عن إدراكه لجسامة التبعات التي أقيمت على عاتق رواد النهضة في مطلعها القريب ، واضطلاله من هذه التبعات بنصيب موفور . فقد فتح عينيه فإذا العالم الأوربي يزخر بأوضاع طريفة في الحضارة ، وفنون جديدة من المعرفة ، وعلم قائم على تطبيق وتجربة ، ومبادئ اجتماعية تتصارع ، وألوان من الأدب لتسود ، والثقافة في بلاد العروبة يومئذ سطحية ، والدراسات الجامعية وليدة ، فأراد أن

يعد النهضة العربية بمقوماتها ، واقتضاء ذلك أن يتعهد بجهوده .
مجالات متعددة في العلم واللغة والأدب والاجتماع على السواء .

كان الأستاذ « إسماعيل مظهر » ، في كل ميدان طرقة من تلك
الميادين على تنوعها وتشعبها فضل مذكور ، وأثر بارز ، ولكن
فضله الأكبر الذي يطبع شخصيته في عصرنا الحديث ، وأثره الباقي
الذي تمتاز به جهوده الثقافية في لغتنا العربية الحاضرة ، يتجلىان
في أنه كان من تلك الزمرة التي عملت في مطلع النهضة على أن
ترفع بمستوى التفكير والتعبير إلى المنهج العلمي السليم ، إذ كانت
أغراض الكتابة والبحث في جملتها تدور في مدارات ضيقة سطحية
تتنشئ فيها الخرافات والأوهام والأفكار التي عني عليها الدهر ،
ولا تكاد تتجاوز مخاطبة العواطف والتعلق بأذيال الأخيلة ، دون
تعمق في واقع الحياة ، وتناول للمسائل والمشكلات ذات التأثير
البعيد في المجتمع ، وتغلغل إلى الحقائق التي كشفت عنها حضارة
العصر . فكان جهد الأستاذ « إسماعيل مظهر » ، ومن إليه من زمرة
المفكرين العصريين فيها كتبوا وفيما ترجموا أن يجعلوا الكتابة
موضوعية بحتة ، والبحث قائماً على الاستقراء والتحليل والاستنتاج ،
في غزارة مادة ، وقوة تفكير ، ودقة تأمل ، ونفوذ إلى الصميم .

وعندى أن ترجمته لكتاب «أصل الأنواع» لداروين ، تشبه
فى الدافع إليها ترجمة « لطفى السيد » لكتب أرسطو ، وقد ظهر
« أصل الأنواع » قريبا من الوقت الذى ظهر فيه كتاب « علم
الأخلاق » . أراد « مظهر » أن ينقل أصلا من الأصول العلمية
الحديثة يوضح مذهب التطور ، كما أراد « لطفى السيد » أن ينقل
أصلا من الأصول الفلسفية القديمة التى توضح مذهب «أرسطو» ،
وكان ذلك منهما دليل الإيمان بأن نقل الأصول فى العلم والفلسفة
إلى اللغة العربية هو أكثر السبل عونا على صحة الفهم، والتعرف إلى
الحقيقة ، وأهدى الطرق إلى توطيد أسس التفكير .

وكما كان الأستاذ «إسماعيل مظهر» حريصاً على أن يقرب إلى
قراء العربية زاد المعرفة الأوربية الحديثة ، كان على مثل ذلك
الحرص فى وصل الحياة العلمية المتطورة بالجذور العربية المسكنة
فى العلم والمنطق والفلسفة ، وإطالما عرفنا بالسابقين الأولين من
أساطين العرب ، أولئك الذين أضاء بهم تاريخ العلم والمعرفة
حقبة من الزمان .

ليس فى مقدور كلمات تلتقى فى دقائق معدودات أن تجزىء فى
تقدير عالم باحث أمضى نصف قرن دءوباً على الكتابة والتأليف .
(١٢)

ولو كان الوقت بملكى لما استطعت أن أوفيه حقه كله ، فإن الأستاذ
دإسماعيل مظهر ، فى كل ميدان من الميادين التى ارتادها وزنا واعتباراً
يحتاج الحديث فيه إلى أهل الاختصاص .

وحسبى من كلمتى هذه أنى أتجه بها تحية لروحه فى ملتها الأعلى ،
ولكباراً لذكراه التى تسرى فى حياتنا العلمية والأدبية
والاجتماعية مسرى النسمة العطرة ، تملأ النفس من رضا وارتياح .

صديق شيبوب

في سطور قلائل ، صباح يوم الجمعة ٢٣/٤/١٩٦٥ نعت الصحافة شيخاً من شيوخها الأجلاء ، هو الأستاذ صديق شيبوب .

كانت الإسكندرية ، مقامه ، فيها لمع اسمه ، وبرزت شخصيته ، فلم تكن تخلو منه ندوة من ندواتها جليسا أنيساً ، أو محاضراً بارعاً ، أو مشاركاً في مسعى من المساعي التي تستهدف خدمة الثقافة والمجتمع .

وإذا كان العمل الصحفي قد فرض على الأستاذ صديق شيبوب ، فرضاً ، باعتباره مورد رزق ، فقد كانت الصحافة كذلك متنفساً له يعبر به عن ولوعه بالأدب ، ويعرض ما له من أثر فيه .

لم يكن أدبه وليد عاطفة جياشة وقريحة وقادة فحسب ، ولكنه كان مع هذه وتلك يستمد أصالته وقوته من ثقافة عالمية واسعة الأطراف ، وللمسام شامل بما يجد من تيارات فكرية شتى .

ألزم نفسه ، زهاء ثلث قرن ، أن ينقد الكتب في مقال أسبوعي

يتصدر الجريدة السكندرية التي يعمل فيها ، وما كان في نقده يجتريء بتصيد ملاحظات عابرة يتناول بها الكتاب المنقود ، بل كان يتخذ من الموضوع سبيلا إلى بسط رأى أو جلاء فكرة أو مناقشة قضية يجد فيها القارىء فائدة ومنتعة يزدوجان فى آن .

وربما رأيت فى نقده مؤيدا أو معارضا ، بيد أنه لا يحتد فى معارضة ولا يشتد فى تأييد . طابعه الاعتدال ، ورائده الصراحة ، وقوام النقد عنده عفة القلم .

وما أحسبه كان ينبغي بما يكتب شهرة وبعد صيت ، وإلا لما حبس مقالاته النقدية تلك فى صحيفة « البصير » ، وهى صحيفة محلية محدودة ، ميدانها الشؤون المالية والتجارية ، وذيوها مقصور على مدينة « الإسكندرية » ، ومع ذلك فإن مقالاته كانت تصل إلى الخاصة من أهل الفكر والأدب ، وتنزل عندهم منازل التقدير والإكبار . وقد عرفنا للأستاذ « صديق شيبوب » إقباله على القصة تأليفاً وترجمة . . وأنت فى قصصه المؤلفة تلمح لقطات بارعة من البيئة حوالية ، وصوراً لطيفة لشخصيات تنتفض حيوية ، وتجده يعالج مضامين القصص وأحداثها معالجة سوئية هادئة غير متكلفة . أما مترجماته فهى مختارات موفقة من أدب اللغة الفرنسية ، وكان يحسنها أيما إحسان . ولذلك انسمت ترجماته بالدقة ، مع سلاسة لفظ ، وجمال عبارة ، وقوة أداء .

لذكرام العطرة تحية وسلام . .

محمد مندور

عزيز علينا أن نذكر الأستاذ الدكتور محمد مندور ،
انتعاه في حسرة وتفجع .

فقدناه في الشهر الماضي ، أكثر ما كنا نرجاه فيه ، وحفاؤه به .
فقد دعوفاه إلى المشاركة في عدد خاص من مجلة «القصة» ، هو عدد
الطلائع ، لينقد ما تيسر له قراءته من القصص ، فرحب واستجاب ،
وكان الأمل أن يكون ذلك فاتحة اتصال أوثق ، ومشاركة
أبعد مدى .

ولكن للأقدار سخرية بما يفكر فيه المفكرون وما يريدون ،
وكان من سخريتها بنا ، أن تحملنا صاغرين على أن نكتب اليوم
هذه السطور في تحية الراحل المأسوف عليه ، نقدم بها نقده الذي
كتبه إلى المجلة ، آخر ما كتب إليها ، أو بالأحرى أوله وآخره معا .

منذ ربع قرن أو يزيد ، ظهر في الناس كتاب اسمه « نماذج
بشرية » لكتابه محمد مندور ، وأشهد أني لم أكد أمضي في

قراءة بعض فصوله حتى تبين لي أني بإزاء كتاب فذل لكاتب فذل ، وأنه فذل ولد في العربية مؤلف في النقد ليس لها بمثله عهد ، فهو في منهجه وفي مضمونه وفي صياغته يدل على بصر بالفكر الحديث في أرقى مستوياته ، ووقوف على روائع الأدب عامة والأدب القصصي خاصة ، ومهارة فائقة في التركيز والاستخلاص والتوجيه .

ويومئذ أيقنت بأن سيكون هذا الكتاب بمثابة تربية نقدية لناشئة الأدب وشهادته ، وتذكرة نافعة للأدباء الرواد وطلائع النقد .

وعرفت أن الدكتور محمد مندور، تلقى ثقافته الأدبية الرفيعة من أصفى الينابيع في الغرب ، وأهل نفسه هناك بدراسات عميقة في ألوان من العلوم الإنسانية والمعارف السكونية ، ورجع إلى وطنه أستاذًا جامعيا يبنى أجيالنا الصاعدة على أسس وطيدة . وما لبثنا أن رأينا يترك مقعده من الجامعة ، وكأنه ضاق به ، ويخرج إلى الآفاق الفساح ، يكتب في الصحف اليومية تعليقا على شئون الحياة وشواغل المجتمع ، ويتناول في المجلات الدورية موضوعات حول النقد الأدبي متنوعة ، ويحاضر في المعاهد الفنية وغير الفنية ، ويلقي أحاديثه في الإذاعة مرئية ومسموعة ، ويسهم في ندواتها بالرأى والمناقشة ، وهو فيما بين ذلك كله يؤلف

أو يترجم ماضى العزم ، ناشط القلم .

ولعل أكبر ما يميز الدكتور مندور أنه جرى فى النقد أول ما جرى على ما درس من مناهج وأصول اتباعية مقررة ، بيد أنه لم يتعصب لها ، ولم يقف عندها ، بل سائر الجديد فى عالم الفكر ، وتابع التطور فى مذاهب الأدب ، ولم يضرب صفحا عن المستحدث من أساليب النقد ، وإذا هو يتمثله ويؤنه أدق وزن ، ويخرج منه ناقدًا أصيلاً ، بعيد أفق النظر ، مصقول الذوق ، عادل التقدير ، مكتسباً من السباحة والمرونة ما يعصمه من التعسف ، وينأى به عن الجود .

وإذا كان الدكتور « محمد مندور » قد ودعنا اليوم ذلك الوداع المحتم ، فقد خلف لنا بآثاره نموذجاً من النماذج الإنسانية الممتازة . . نموذج أديب ناقد ، آمن برسائلته فأداها فى أمانة ، وذهب راضياً مرضياً ، عليه صلوات من الله ورحمة .

أمين الخولي

يعد الأستاذ أمين الخولي من أنضج ثمرات النهضة العلمية والأدبية التي اتسم بها القرن العشرون في الشرق . إذ تجلت في شخصيته أروع خصائص تلك النهضة من الثورة على التخلف والجمود ، والتطلع إلى آفاق نيرة في الثقافة والفكر ، والاتصال الوثيق بأقوم ما تمخض عنه العصر الحديث — على المستوى العالمي — من نظريات واتجاهات .

وقد أفاد من تخرجه في الأزهر وفي القضاء الشرعي أصالة في دراسة جوانب الحضارة الإسلامية والعربية وثقافتها ، تاريخها وفقها وأدبا ولغة . وكان لذلك أبعاد الأثر في حياته العقلية ، خلال مراحل جهاده الثقافي والفكري في البحث والتأليف والتدريس الجامعي .

ولم يكن نشاطه مقصورا على هذا كله ، مع تعدد نواحيه ، ولكنه زاد على ذلك أنه كان له من أساليب الدعوة والتوجيه

ما أنشأ به مدرسة فكرية التف حو لها شباب الجامعة — جيلا
بعد جيل — يقتبسون منه نظراته الموجهة ، وآراءه الثاقبة ، في
تطوير قواعد اللغة ، وتجديد مذاهب الأدب ، وإحياء رسالة
الدين ، ويتخذونه مثلاً كاملاً في إعلاء حرية الفكر وإذكاء
روح التقدم .

وقد ترك في اللغة والأدب والشريعة والفلسفة والأخلاق
كتباً ورسائل ومباحث تربي على الثلاثين ، تغلغل الانتفاع بها
في أرجاء الوطن العربي الشامل ، ومنها ما عرض في المحافل
والمؤتمرات العلمية في البلاد الأجنبية وترجم إلى لغاتها .

مراد كامل

الدكتور مراد كامل أستاذ جامعي مكي ، وعضو في مجمع اللغة العربية له فيه أثر واضح ، وكذلك في المجمع العلمي المصري ، وغيره من الهيئات العلمية . وهو عالم تخصص في دراسة اللغات ، وبخاصة اللغات الشرقية ، وقد نال دكتوراه الاستاذية من جامعة توبنجن بألمانيا في صدر شبابه . ومنذ استكمل تعليمه لم يفتر له جهد في البحث والتأليف ، ولا نشاط في التدريس والتوجيه ، وأنه مع ذلك دءوب على الأعمال الإنشائية ، أحيا إلى جانب أستاذه الجامعة مدرسة الألسن لتنشيط حركة الترجمة ، وعمل على إدخال اللغة العربية في مدارس أثيوبيا ، ووضع لذلك كتابين في القواعد والمطالعة . وله مشروع لجعل اللغة العربية لغة عالمية . أما بحوثه في الآداب العربية وتاريخها وفي فقه اللغة العربية وفقه اللغات عامة ، فقد جاوزت الخمسين ، وهي على تعدد ألوانها ، وتنوع اتجاهاتها ، تمتاز بأصالة درس ، وعمق بحث ، وسعة أفق . وذلك إلى امتيازها بالحיוية وقوة ارتباط موضوعاتها بمطالب النهوض

العصرى ، مع صدق الرغبة فى الإفادة والتبصير . وبهذا يسمو
الدكتور مراد كامل إلى طبقة العلماء الذين يتجهون بمجهودهم ووجهة
عملية إيجابية فى جد وصمت وإخلاص ، لإمداد الحركة العلمية بما
يريدها من غنى ونماء .

دور الأدب في المجتمع

الأدب في أبسط تعريف له هو التعبير عن الحياة ، وما الحياة إلا انعكاس النظم والأوضاع على الأحياء في سلوكهم الاجتماعي ، فإذا عبر الأديب عن حياة فرد أو حياة جماعة في صورة فنية ، فما يستطيع أن يفصل بين هذه الصورة وصورة المجتمع الذي يحيا فيه الفرد أو الجماعة ، وإلا كانت الصورة زائفة ، مكذوبا بها على الحياة والأحياء .

على أن الأديب — في نفوذ بصيرته ، ورقة مشاعره ، ورهافة إحساسه بمواطن الحق والخير والجمال — يمثل يقظة الوجدان ، وصفاء الروح ، وقوة الالتقاط لما في المجتمع من تيارات وخوارج ، فهو بخصائصه إنساني النزعة ، جماعي الاتجاه ، ولا بد أن يكون تعبيره عن مجتمعه تعريزا لا كرم ما فيه من مثل ، وتأيدا لما تتمخض عنه الطاقات الفكرية والقومية ، من معان رفيعة ، وأوضاع رشيدة ، في ممارسة الحياة .

ليس الأديب إذن بحاجة إلى من يحفزه حفزا إلى مناصرة
مجتمعه فيما يهدف إليه ، ذلك لأنه مغمور بهذا المجتمع الذى
يحتويه ، محوط بهتافاته وأشواقه وقصده إلى غاياته ، متأثر بكل
ما حوله من قوى خلاقية ، وانطلاقات جماعية بناءة ، فإذا جرد
قلبه ليصور فإنما يحرده ليصور مجتمعه نفسه ، وإذا عبر فإنما
يعبر عن روحه ، يستلهمه ويلهمه ، ويستوحيه ويوحى إليه .

والأديب فى تصويره مجتمعه شأن غير شأن من يدرس قضية
من القضايا ، عامدا إلى تجميع أسباب الدفاع عنها ، والتفنن فى
حمايتها بما يفترى به عليها ، فإن شأن الأديب أن يكون صادقا
مخلصا فى استشفاف ما يحول فى نفسية مجتمعه من عوامل
التطور ، وأن يؤمن أعمق الإيمان بأن الولاء للتقدم الاجتماعى فى
أمته فرض عليه ، ومتى صدر الأديب فى عمله عن الصدق
والإخلاص والإيمان فسيرجح العمل فى ميزان الفن الأصيل .
وكم من أحداث تاريخية غابرة ، وتطورات قومية سحيقة ،
عبر عنها أدباء قدامى تعبيراً فنياً فى صدق وإخلاص وإيمان ، فلم
تبق تلك الأحداث والتطورات الماضية فى سجل التاريخ المأثور ،
بقدر ما بقيت أعمال أولئك الأدباء القدامى فى سجل
الفن الرفيع .

ونحن في مجتمعنا المعاصر لا يعوزنا التكافل والتضامن .
والإحساس الجماعي ؛ بالمسؤوليات والتبعات التي يلقيها على عواتقنا
عهدنا الجديد ، ولقد انطوت مسافة الخلف في وطننا بين الحاكم
والمحكوم ، فتلاقت الدولة حكومة وشعبا على مبادئ وأهداف ،
وكما وجد الأدباء أنفسهم مواليين من ذات أنفسهم لهذه المبادئ .
والأهداف ، في صدق وإخلاص وإيمان ، أوجبت الدولة على
نفسها تقدير الأدب ، وتشجيع الأديب ، فلقد اتخذت من الوسائل
أنجعها في تنمية المواهب الفنية وتعزيزها وإمدادها بما يزيها ،
ولم يكن بها في تحقيق ذلك ضئيلة بمال أو تكريم أو تأييد .

ولكن الأمر على أية حال ما برح مفتقرا إلى تدخل المشرع
لحماية حقوق الأديب ضائعة ، ولتنظيم أوضاعه في شأن الأداء
الفني غير محكمة ، ولعل ذلك من أثر الرواسب التي لم تعالج في
العهود الماضية في مختلف نواحي حياتنا العامة ، ونحن نعمل
جاهدين على إزالة هذه الرواسب ما وجدنا إلى ذلك من سبيل .

كيف أصبحت قصصياً؟

نشأت في بيت أكثر ما فيه الكتب ، فقد كان أبي المرحوم د أحمد تيمور ، ولوعاً بجمع ما تمخضت عنه القرائح العربية في كل علم وفن ، لا يكاد يدع منها مطبوعاً أو مخطوطاً في الشرق والغرب ، ولعله كان بالمخطوطات أشدولعاً ، وحرصه على اقتنائها أبعد مدى ، ومرت الأيام تباعاً ، ود الخزانة التيمورية ، التي تحتل الآن مكاناً كريماً من ددار السكّتب المصرية ، تكبر ، وأنا أكبر معها ، وأزداد من تقدير لها ، وكان أبي ينفق أطيب وقته بين حجراتها ، ويرصد أعظم جهده في سبيلها ، حتى لقد خيل لي — وهو يتنقل بين أصواتها ورفوفها — أنه قد غدا فيها كتاباً حياً ينطق بما بين دفتيه .

ولما اشتد عودي ، وأحسنّت القراءة والكتابة ، ألفيت أبي . يهدي إليّ مجلداً ضخماً من كتاب د ألف ليلة وليلة ، في طبعة مهيبة . محلاة بالتصاوير ، فما هي إلا أن أقبلت على الكتاب ، أصبح فيما حوى من حكايات شائعة ، وكنت أجمع من يرغب في الاستماع من عشيرة البيت ، فأعيد عليهم تلاوة ما قرأت ، ولعل السر في

إعجابي بـ « ألف ليلة وليلة » ، في تلك المرحلة من حياتي ، هو مشابقتها «للحواديت» ، وهي القصص الساذجة الخرافية التي استمعنا إليها من العجائز ، يسامرننا بها في عهد الطفولة الأولى ، فكأننا كنا كُنْتُ بقراءة «ألف ليلة وليلة» أستهيد سذاجة ذلك العهد المحبب الأنيس ، وما منا إلا من يشعر بحنين إلى بواكير أيامه ، وهو حديث عهد بالحياة . ولم يكن كل ما يعجبنا في « ألف ليلة وليلة » مجرد شبهها بالقصص البطولية الساذجة ، فقد راقنا منها مع ذلك اتساع الخيال ، وخلابة الأحداث ، وطرافة الصور ، والجو الشرقي الساحر الذي يمت إلى نفوسنا بأوثق الأسباب ، ذلك الجو الحافل بالمغامرات التي تهفو نفوسنا إلى مزاولتها ، نشارك الأبطال فيما يقومون به من أعمال ، وما يخوضون من أخطار : ترتفع مع الرخ إلى السموات العلى ، ثم نهبط من « وادي الشعابين » إلى « مغارة الموتى » ، وإذا نحن ننفذ منها إلى « مدينة النحاس » نهم في صمتها المرهوب ، ثم لا نلبث أن تثوب إلى الأهل والأحباب ، محملين بالذهب والفضة ، متحلين باللآلئ والياقوت .

ولا ريب في أن « ألف ليلة وليلة » ، بما يذكر في نفس القارئ . موهبة التخيل ، ويمده بعناصر الخلق القصصى . ولم يكن عبثاً أن يقول «فولتير» : إنه قرأ ذلك الكتاب مرات قبل أن يجرى قلمه

بكتابة قصة ، وأنه تمنى أن يفقد ذاكرته ليستطيع أن يقرأ الكتاب من جديد بمثل اللذة التي قرأها بها أول مرة .

ولقد أثار كتاب « ألف ليلة وليلة » ميل إلى قراءة أمثاله ، فأمدتني مكتبة أبي بما أطمح إليه . وأذكر أنه كان فيما قرأت يومئذ من كتب الأسفار ونوادر الأخباريين كتاب « إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس » وكتاب « نفحة اليمن » بما يزيل الهم والشجن ، وغيرهما من النظائر والأشياء .

وامتدت عيني إلى غير ما تحويه خزانة أبي من روايات عصرية مترجمة ، فوجدتني أجنح إلى إيثار « القصص البوليسية » ، أعني قصص الحيلة والجريمة ، وأذكر منها الآن روايات « نقولا كارتر » و « شارلوك هولمز » و « سنكلر » . ففتنت أيا فتنة بما يبيده الأبطال من ذكاء ، وسرعة خاطر ، وحضور بديهة ، وقدرة بارعة على التخلص من المآزق وكذلك أعجبت بما تدبر القصص من مفاجآت مثيرة تملك على القارئ انتباهه ، وتحمله على متابعة القراءة في شوق موصول .

وفي صيف من الأصياف ، وأنا مغمور بما قرأت ، وما وعيت ، من هذا اللون القصص الغربي ، سافرنا إلى الضيعة في الريف ، والحياة هنالك هادئة يتسع فيها وقت الفراغ ، والجو (١٣)

هنالك مهياً للتأمل والانطلاق في آفاق الخيال ، فألفيتني أخلو إلى
نفسى ، وأغلق الباب دونى ، وأجلس إلى أوراقى وأقلامى ، أدبج
قصة هندية الأحداث ، بطلها ضابط إنجليزى يحنى على فتاة وطنية ،
فينبرى أهلها يثأرون لها ، وينتقمون من أساء ليلها . وجمعات
القصة عنواناً عظيماً ، هو : « الشرف الرفيع » . وما فاتنى أن
أرصع القصة بيت « المتنبي » :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

ولما أتممت تحرير القصة هرعت بها إلى أبى ، ورجوت منه أن
يبعث بها إلى إحدى الصحف لكي تنشرها باسمى ، وكانت سنى
إذ ذاك لا تتجاوز الرابعة عشرة ، فألقى أبى على القصة نظرة خاطفة ،
ثم ابتسم لى ، وربت كتفى ، وقال :

حسنًا كتبت ، وسأُنظر فيما رغبت فيه من نشر القصة .

وانقضت أيام ، وأنا أرتقب ظهور القصة العظيمة ، وطال
ارتقائى ، حتى ألهتنى عنها الشواغل وبعد حين صادفت
باكورتى فى الكتابة القصصية مسجاة فى زاوية من مكتب أبى ،
تشكو الصد والإعراض . فأدركنى عليها إشفاق ، وهممت أن
أتناولها ، ولكن إكبارى لأبى منعنى أن أفعل ، فانتظرت حتى

لحيته ، وفاتحته في الأمر ، فطلب مني أن أعاود تجربة الكتابة مرة أخرى ، لعل أبلغ من التوفيق ما لم يتح لي في التجربة الأولى .
وإذا كان أبي صاحب الفضل الأول في إذكاء موهبتي الكتابية بما يسر لي من المطالعة ، في صباى الباكر ، فإن الذى بعثنى على أن أكتب في جسد وتصميم هو شقيق المرحوم د محمد تيمور ، إذ وجه موهبتي توجيها استفاده من ثقافته وخبرته وذوقه ، وكان يومئذ قد عاد من فرنسا ، بعد أن قضى فيها ثلاث سنين ، يتزود من الأدب العصرى الأوروبى ما طاب له أن يتزود .

وشرع شقيقى يعالج فيما يعالج من ألوان الكتابة رسم ألواح قصصية ، أظهر ما فيها معالم حياتنا المحلية ، وأميات مشكلاتنا الاجتماعية . وكانت كتاباته في هذه الناحية فسحا لنطاق الأدب العربى ، ونقلنا له من موضوعاته التقليدية المتوارثة إلى تسجيل ما يعتلج من آمال وآلام في نفسية المجتمع العصرى ، داخل إطار قصصى .

ولبثت أرقب عن كسب شقيقى يعرض محاولاته في هذا الباب ، فإذا تحرك قلى للبيان والتعبير ، ألفيتنى أوثر ذلك اللون الذى كان يسمى حينئذ « الشعر المنشور » ، أبث كلماته ما يضطرم به وجدانى من عواطف ومشاعر وخطرات . ولم يكن ذلك

الشعر المنشور يخلو من وشائج هي في باب القصة أدخل منها في باب المقال . على أنني كنت في هذا الاتجاه متأثراً — لا شك — بما توهج في أفقنا الأدبي لذلك العهد من لوامع أدب المهجر ، بأقلام « جبران » و « الريحاني » و « نعيمة » ومن إليهم ممن زفوا إلى الكتابة العربية أدباً عاطفياً إنسانياً جديداً في روحه ، يمس من القارئ شغاف قلبه ، ويثير فيه كوامن عطف ورحمة وإشفاق .

وفي ذلك الوقت كنت أستمير في مطالعاتي بهدى شقيقي ، فنصح لي فيما نصح بأن أطالع « حديث عيسى بن هشام » للأديب العربي الصميم « محمد الماويلحي » ، وقصة « زينب » للكاتب الاجتماعي المفكر « محمد حسين هيكل » ، فلمحت فيهما مسحة تختلف عن الأدب « الرومانسي » الذي كنت غارقاً فيه ، مسحة تهبط بالقارئ من سماء الخيال المجنح ، حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب ، إلى الأرض التي ندب فيها ، فنرى الناس من حولنا بشراً مثلنا على فطرتهم التي خلقوا عليها .

و « حديث عيسى بن هشام » هو المرحلة الثانية للقصة في الأدب العربي بعد « ألف ليلة وليلة » . وقد نحا فيه مؤلفه منحى حديثاً ، فخياله واسع ، وسرده متمتع ، وشخصياته لا تنطو من لحكام في الرسم ، وإذا كان قد اقتفى أثر « المقامات » في بعض

أسلوبها ، فقد امتاز بأنه صاحب المحاولة الناجحة المبكرة لتصوير الأدب وصبغه باللون المحلي ، مع سموه عن الواقعية الساذجة .

أما « زينب » فهي أسبق عمل أدبي في العصر الحديث ، مكتمل للعناصر الأساسية للقصص الفني . ولا ريب في أن هذه القصة كانت مظهراً لنزعة التجديد ، ووثبة الخلق ، فيها اتفادسة وجدانية وطنية ، وفيها معالجة لتصوير الحياة في رقعة كبيرة من هذا الوطن ، هي الريف ، فتوهجت في القصة مشاعر وعواطف ، وتعاقبت صور محلية ، وتجلت شخصيات شعبية أريد بها جميعاً أن تحقق غرضاً هفت إليه نفوس الداعين إلى تجديد الأدب في مستهل القرن الذي نعيش فيه . ذلك الغرض هو إنشاء أدب قومي السمات ، قومي الأحداث ، قومي الروح ، يتأكد به طابع القومية في التعبير والتصوير .

ولم تقف مطالعاتي عند الأدب العربي قديمه وحديثه ، ما ألف فيه وما ترجم إليه ، فقد كانت معرفتي بالإنجليزية والفرنسية قد نمت نمواً يمكنني من أن أقرأ الأدب الغربي في هاتين اللغتين ، وأرشدني شقيقى إلى قراءة ما كتب « موباسان » الفرنسي ، و « تشيخوف » الروسي في مجموعتهما القصصية . فقرأت لهما ، أو قل عببت من أقاصيصهما عبا ، فأما « موباسان »

فقد راققتى منه قدرة على تصوير قطاعات كثيرة من الحياة مختلفة الألوان ، فيها بساطة وفيها صدق ، وفيها امتلاك لخاصية الصياغة القصصية ، وفيها مهارة جمع الأطراف التي يبنى عليها العمل القصصى من أحداث وشخصيات . وأما « تشيخوف » فقد راعى منه أنه يصور مآسى الحياة فى ألواح فنية ناطقة ، لعلمها لا تستكمل صياغتها القصصية بالمعنى الشائع للقصة المحبوكـة الأطراف ، ولكنها بضعة من الحياة فيها حرارة وفيها خفوق . ومع ما يبدو من بساطة الظاهر فى هذه الألواح فإنها تنطوى على معان عميقة ، وتحليل للنفس البشرية عجيب .

ويبدو لى أن تأثرى بما قرأت من أدب اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، قد أغضب على شيطان الشعر المنشور ، فإذا هو يتخلى عنى ، شكر الله له ما صنع ، إن كان لإنسان أن يطلب الشكر للشيطان ! وجرى قلبى بقصة قصيرة هى « الشيخ جمعة » ، وعلى أثرها كتبت قصة أخرى هى « يحفظ بشباك البريد » ، والحق أن قصة « الشيخ جمعة » نصيبها من التصوير الوصفى أكبر من التأليف القصصى ، فضلا عن أن الواقعية فيها تكاد تكون هى العمل كله . والقصة الفنية إنما تكون مزاجا من واقع وخيال . على أن « الشيخ جمعة » لقي من القبول والاستحسان ما لم أتوقع ، إذ مس الموضوع

ناحية إنسانية في تصوير ذلك الشيخ الفطرى في لقاء سريره ، وفي فلسفته الساذجة التي تستعمل على مشكلات الحياة . وكثيراً ما تتعقد المشكلات في وجه الإنسان ، فتقفو نفسه إلى مثل تلك الفلسفة البدائية المربحة التي هي كالمرفأ تبحر إليه السفينة حين يكتنفها إعصار ، أو يعث بها تيار . ولكن القصة التي اعتبرها مكتملة المزاج الواقعي الخيالي — أعني مكتملة لعنصرى القصص الفني — هي قصة « يحفظ بشباك البريد » ، وموجزها سخرية خفيفة بأدعياء المغامرات الغرامية ، وبخاصة في فورة الشباب . وهذه القصة أتيح لها أن تترجم بعد ذلك بسنين إلى الإنجليزية في كتاب يضم نخبة من القصص في مختلف البلاد ، ولعلها كانت طليعة ما تترجم من الأدب المصرى العصرى إلى لغة أجنبية . وربما كان السر في اختيارها لتمثيل أدبنا المصرى القصصى وقتئذ أنها كانت موفورة الحظ من اللون المحلى الذى يجذب أنظار القارىء الأجنبي .

ويجنى القدر في شقيق « محمد تيمور » سنة ١٩٢١ ، وهو من شبابه في عنفوان ، وحوله هالة من الأمانى تتألق ، ولا تعرف مصيرها من بعده ، أنخبو بموته ، أم تتاح لها حياة وبقاء ؟

حقاً ، لقد شعرت على أثر ارتحال شقيقى إلى دار الخلود ، بانتهاء ما كان يطمح إليه من نماء النبتة الجديدة ، فبته القصة في أدبنا

القوى الحديث ، تلك النبتة التي رواها بدمه ، وارتقب لها أن تزدهر .
كل الازدهار .

ورأيتني أضعف من أن أخلف شقيق الراحل على ما كان يبشر
به ، ويسعى إليه ، فأخلفت إلى سكينه اليأس ، بعض حين . ولكن .
عجالة الحياة جعلت تدفع بي في طريقها الممدود ، لا يعنينا من الأمر
إلا أن تستكمل دوراتها ، ولا تبالي من انقطعت به الطريق . . .
فأخذت جراح الفجيعة تندمل وريداً ، وإن كانت الذكرى باقية .
بقاء الروح في الجسد الحى .

ووجدتني أنشط لبعض العمل ، فلبست ما تشعث من قواى ، .
وخطوت على الدرب في تودة وحذر ، أنفض عن كتفى غبار
اليأس ، وأقصي شبح الإخفاق ، معوّلاً على نفسى ، مهتدياً بهدى شقيق
الراحل . فكنت أكتب أقاصيصى مندفعاً يباعث من راعيتى الباطنة
إلى استكمال ما كانت نفس شقيقى تصبو إلى تحقيقه ، لو مد الله في
عمره . وكنت أحس أنى بهذا النشاط أكرم روح شقيقى ، وأقرنها
واجب التحية والإجلال .

وما إن أقبل عام ١٩٢٥ حتى كان قد تجسّم عندى ما يصح
إخراجه في مجموعة قصصية ، فسارعت إلى طبع كتابي الأول
«الشيخ جمعه وقصص أخرى» ، وأتبعته كتابي الثاني ، «عم متولى» .

ونفسي راضية عما أصنع ، وضميري مستريح إلى أنى أحاول أن أستبقى من شقيق الراحل جوهر حياته ، أغنى ما كان يهدف إليه ويهتف به من إرساء دعائم الفن القصصى العصرى فى الأدب العربى .

وإذا أنا ألزم نفسى التجرد للكتابة ، لا أنتهى من مجموعة حتى أكون قد نسجت الخيوط لمجموعة أخرى ، وتراوت لى مشاهد الحياة ، وشخصيات الناس ، وأحداث المجتمع ، ولوامع الأفكار ، كأنما هى بضاعة قابلة للعرض فى مخيلتى الفنية ، داخل الإطار القصصى ، أو كأنما هى ألواح محشودة أمام عيني ، وعلى أن أنتقى منها ما أنقله فى حروف وكميات .

وكان من الطريف أن يتحدث أصدقائى عنى بأنى أجالس منهم من أجالس ، وأتحدث إلى من أتحدث ، فلا يلبثون أن يروا سماتهم وقسماتهم وبعض خفايا نفوسهم فيما أنشر من أقاصيص ، وكأنى أذيع لهم أسراراً أو أصدور منهم زوايا كانوا يصونونها عن العيون

ولم أكن أبالى بهذا من الأصدقاء الظرفاء ، فقد شغلنى أن أجلو مرآة للحياة من حولى ، ولمن أعاش من خلق الله . فمن رأى فى تلك المرآة وجهه فلا تثريب علىّ ، بل لعل ذلك مما يزيدنى إيماناً وثقة بأنى لم أكذب فيما وصفت ، ولم أخفق فيما صورت . ولست

تأخفى أن هزة من الغبطة والزهو كانت تعرفني حين أعلم أن بعض من أصحاب عرف نفسه في معرض الشخصيات التي أعينها ما أكتب من أقاصيص !

وفي خلال أربعين سنة ، أخرجت من كتي القصصية جملة تبلغ عدة تلك السنين ، منها ما ترجم إلى لغات شرقية ، ومنها ما ترجم إلى لغات غربية . ولقد كتبت القصة قصيرة ومطولة ، وكتبتها للقراء والمسرح ، واستلهمت في كتابتها روح العصر مرة . وأحداث التاريخ مرة ، وطوفت بالمدينة أحياناً وبالريف أحياناً وبالبادية أخرى ، ومشيت في دروب الواقع خطوات ، وحلقت في آفاق الخيال شأواً بعد شأواً ، واستجبت لهوائف شتى من مسرات وأحزان ، وجلوت من سرائر النفوس ما استطعت أن أجلو ، وعالجت من مشكلات الحياة ما تيسر لي أن أعالج وكنت فيما أكتب أتقل من مرحلة إلى مرحلة ، ومن عهد إلى عهد ، لا أجد عند مذهب أدبي بعينه ، ولا أقنع بلون من ألوان الأداء الفني أستمسك به لا أعده ، يحدوني في ذلك كله ما اكتسبت من خبرة بالوجوه ، ومن تجربة في المجتمع ، ومن دؤوب على الاطلاع في مختلف فروع الثقافة ، ومن رحلات في الشرق والغرب . ولا أنسى ما أفدت من سخط الناس على ما أكتب طوراً ورضاهم

عنه أطواراً . ولعل أفدت من النقد والملاحظة أضعاف ما أفدت من الثناء والإطراء .

وأنا الآن في مرحلة أعالج فيها كتابة القصة ، وأوازن بين المرحلة الأولى ، مرحلة قصة "يحفظ بشباك البريد" التي كتبتها منذ أربعين عاماً ، مقتصرأ فيها على تصوير شخصية شاب من أدعياء المغامرات الغرامية ، وبين المرحلة الحاضرة التي أعالج القصة فيها ، مستنفداً ما كسبت وما أفدت من طول المراتة ، ومعاناة الدرس ، ومن فهم لأصول القصة الفنية ، وضرورة استيفاء حظها من التحليل النفسي ، ومن التعمق في النزوع الإنساني الذي يمت إلى غرائز ثابتة تمثل كفاح البشر في معركة الحياة ، على مسرح الوجود .

وفي هذه المرحلة الحاضرة ، التي أستدير بها تلك المراحل السالفة ، أنصت إلى من يسألني :

كيف أصبحت قصصياً ؟

فأراني أفكر في السؤال ملياً ، ولا أملك إلا أن يكون جوابي هو أن أسأل نفسي في صدق وإخلاص :

هل أصبحت قصصياً حقاً ؟

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
الأدب في السنين المائة الأخيرة	٣
عائشة التيمورية	٥٠
شوقي والمسرح العربي	٨٣
حافظ ود ليالى سطيح،	٩١
طه حسين	١٠٢
توفيق الحكيم	١٠٦
العقاد، كما أراه	١١٧
محمد فريد أبو حديد	١٢٥
عزيز أباظة	١٣٤
خليل مردم	١٣٨
عمود طاهر لاشين	١٤٨
محمد السباعي	١٥١

الصفحة	الموضوع
١٥٨	زكى مبارك
١٧٢	إسماعيل مظهر
١٧٩	صديق شيبوب
١٨١	محمد مندور
١٨٤	أمين الخولى
١٨٦	مراد كامل
١٨٨	دور الأدب فى المجتمع
١٩١	كيف أصبحت قصصياً

رقم الإيداع ٣٢١٩ / ١٩٧٠

To: www.al-mostafa.com